

**T.C.
YALOVA ÜNİVERSİTESİ
SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ**

**EL-ENDELÛSİYYE FÎ ŞÎ'RÎ'L-GAZEL EL-UZRÎ EL-ENDELÛSÎ
HATTÂ NİHÂYETİ ASRÎ'L-MURÂBİTÎN**

**YÜKSEK LİSANS TEZİ
Mohamed MALAK**

**Enstitü Anabilim Dalı : TEMEL İSLAM BİLİMLERİ
Enstitü Bilim Dalı : İSLAM ARAŞTIRMALARI (ARAPÇA)**

Tez Danışmanı: Doç. Dr. Soumia HAJNAYEF

AĞUSTOS 2018

T.C.
YALOVA ÜNİVERSİTESİ
SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ

EL-ENDELÛSİYYE FÎ Şİ'RÎ'L-GAZEL EL-UZRÎ EL-ENDELÛSÎ
HATTÂ NİHÂYETİ ASRÎ'L-MURÂBİTÎN

YÛKSEK LİSANS TEZİ
Mohamed MALAK (157225017)

Enstitü Anabilim Dalı : TEMEL İSLAM BİLİMLERİ
Enstitü Bilim Dalı : İSLAM ARAŞTIRMALARI (ARAPÇA)

Bu tez 07/09/2018 tarihinde aşağıdaki jüri tarafından oybirliğiyle kabul edilmiştir.

	Adı SOYADI	Kanaati			İmza
Jüri Başkanı (Danışman)		Kabul ☐	Düzeltilme ☐	Ret ☐	
Jüri Üyesi		Kabul ☐	Düzeltilme ☐	Ret ☐	
Jüri Üyesi		Kabul ☐	Düzeltilme ☐	Ret ☐	

SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ
YÜKSEK LİSANS İNTİHAL YAZILIM RAPORU
BEYAN BELGESİ

Tez Başlığı: El-Endelûsiyye Fî Şi'ri'l-Gazel El-Uzrî El-Endelûsî Hattâ Nihâyeti Asri'l-Murâbitîn

Yukarıda başlığı belirtilen tez çalışmamın toplam 114 sayfalık kısmına ilişkin aşağıda belirtilen filtrelemeler uygulanarak alınmış olan ve 26/08/ 2018 tarihinde aşağıda ismi yazılı araştırma görevlisi tarafından şahsıma iletilen TURNİTİN intihal tespit programı raporuna göre tezimin benzerlik oranı % 16'dır.

Uygulanan filtrelemeler:

1. Kaynakça hariç,
2. Alıntılar dâhil,
3. 5 kelimeden daha az örtüşme içeren metin kısımları hariç.

Bu bilgiler doğrultusunda tez çalışmamın herhangi bir intihal içermediğini; aksinin tespiti halinde doğabilecek her türlü hukuki sorumluluğu kabul ettiğimi ve yukarıda vermiş olduğum bilgilerin doğru olduğunu beyan ederim.

Gereğini saygılarımla arz ederim.

İmza

Adı - Soyadı : Mohamed MALAK
Öğrenci Numarası : 157225017
Ana Bilim Dalı : Temel İslam Bilimleri
Programı : İslam Araştırmaları (Arapça)
Türü : () Proje (X) Yüksek Lisans Tezi () Doktora Tezi

Taramayı Yapan
Dr. Öğr. Üyesi Hacı Bayram BAŞER
26.08.2018

Danışman
Doç. Dr. Soumia HAJNAYEF
26.08.2018

Önsöz

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه رسالة بعنوان: (الأندلسية في شعر الغزل العذري الأندلسي حتى نهاية عصر المرابطين)، وتتمثل الأندلسية في شعور الأدباء والشعراء الأندلسيين وإحساسهم بدوائهم وسعيهم الدائم إلى إثبات تفوقهم وتأكيد امتيازهم أمام أقرانهم في المشرق متأثرين بعوامل عديدة.

وأثر المكان والبيئة المحيطة بالشاعر لا يخفى على أحد، وخير مثال على ذلك قصة علي بن الجهم المشهورة التي أثارت فضولي مع أول تماس معها، للبحث في تأثير البيئة على الأدب.

أما اختياري الغزل العذري فلما يمتاز به من طهر ونقاء، ولقربه من النفس البشرية أكثر من غيره من أغراض الشعر العربي. وكان إطار البحث الزماني يمتد من بداية الوجود العربي في الأندلس حتى نهاية عصر المرابطين، وذلك لأن الثقافة الأندلسية بعد هذا العصر اختلطت بالثقافات الأخرى الواردة مع دخول يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وتأسيس دولة الموحدين.

وتكمن أهمية هذا البحث في الوقوف على المؤثرات الاجتماعية والسياسية والحضارية والثقافية، بالإضافة إلى النزعة الأندلسية عند أهل ذلك المصر، التي أثرت في سمات وخصائص هذا النوع من الغزل. التي كان بيانها هدفاً من أهداف البحث.

فخرجت الدراسة في فصلين ومقدمة وخاتمة.

بينت في المقدمة دوافع البحث وأهميته والأهداف المرجوة منه.

أما في الفصل الأول: فبدأت بالحديث عن الغزل بشكل عام، والعذري منه على وجه خاص. ثم تطرقت إلى شرح معنى الأندلسية وما له علاقة بها. ثم انتقلت إلى بيان العوامل المؤثرة في شعر الغزل العذري الأندلسي، من خلال دراسة البيئة الاجتماعية والسياسية، وأثر الطبيعة، والمحيط الثقافي والحضاري، التي كان لها الأثر الأكبر في بناء قصيدة الغزل العذري في الأندلس.

وجعلت الفصل الثاني لدراسة مظاهر الغزل العذري الأندلسي، فميزت بين ثلاث طوائف من شعراء الأندلس في تعاطيهم مع هذا الغرض، متخذاً من ابن الحداد وابن اللبانة وابن حزم نماذج تمثل هذه الطوائف.

كما تعرضت لسمات الغزل العذري التي ظهرت في شعر العذريين في الأندلس. وأنهيت الفصل بدراسة الخصائص الفنية للشعر العذري الأندلسي.

بعد ذلك وضعت الخاتمة، وقد أجملت أهم النتائج التي توصل إليها هذه البحث.

وكان منهجي في هذه الرسالة وصفياً تحليلياً، متتبّعاً الظاهرة ومنتقياً نماذج داعمة للفكرة، وراصداً للأسباب والخلفيات التي أوجدتها، وحاولت أن أراعي الأمور الآتية:

- توثيق الأقوال معتمداً على المصادر ما أمكن.
 - عزو الآيات الواردة في الرسالة بذكر رقم الآية واسم السورة التي هي منها.
 - تخريج الأحاديث النبوية والآثار من كتب الصحاح والمسانيد والسنن.
 - تخريج الشواهد الشعرية ببيان بحورها، وعزوها إلى قائلها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وتوثيقها من الدواوين والمجموعات الشعرية، مع تفسير غريبها من معاجم اللغة.
 - ترجمة الأعلام الواردة في متن الرسالة، وقد حرصت على أن تكون الترجمات جامعة بين الإيجاز والوفاء بالغرض.
 - ذكر السنة الهجرية لوفاء أولئك الأعلام عند أول ورود لها في متن الرسالة.
- أما الصعوبات التي واجهت البحث فتتمثل بقلة الأبحاث المتعلقة بالأدب الأندلسي، وبالغزل العذري الأندلسي بشكل خاص، وبافتقار المكتبات التركية إلى المراجع العربية المختصة في صلب موضوع البحث، وبعدم وجود دواوين بعض الشعراء الأندلسيين مما اضطرني إلى تعقب آثارهم في كتب التراث الأدبي الأندلسي، ككتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.
- وإلى طرق أبواب المكتبات الخاصة منها والعامة، داخل تركيا وخارجها، مستعيناً في ذلك بالتصوير تارة، وبالاقتناء تارة أخرى، لجمع ما أمكنني لإنجاز هذا البحث
- وفي الختام فهذا نتيجة عمل وجهه دأب لسنوات، أرجو من الله أن أكون قد وفقت إلى تقديم بحث يخدم هذه اللغة الشريفة وأدبها.

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجميل والعرفان الجليل إلى الأستاذة المشرفة الدكتورة سمية حاج نايف التي ما بخلت عليّ بتوجيهاتها، ولا ضنت عليّ بمرجع أطلبه منه، وإلى كل الذين ساعدوني من زملاء. والله أسأل التوفيق والسداد.

محمد ملاك

استانبول ٠١ / ٠٨ / ٢٠١٨

İÇİNDEKİLER

i.....	تعهد
ii.....	المقدمة
vi.....	فهرس
x.....	الملخصات
1.....	مدخل إلى البحث
2	الفصل الأول: شعر الغزل العذري الأندلسي والعوامل المؤثرة به
3.....	المبحث الأول: الغزل والغزل العذري الأندلسي لغة واصطلاحًا
3.....	أولاً: الغزل لغة واصطلاحًا
6	ثانيًا: الغزل العذري لغة واصطلاحًا
11.....	ثالثًا: مفهوم الأندلسية
15.....	المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في شعر الغزل العذري الأندلسي
16.....	أولاً: البيئة الاجتماعية
27.....	ثانيًا: البيئة السياسية
34.....	ثالثًا: البيئة الطبيعية
38.....	رابعًا: البيئة الثقافية والحضارية
44	الفصل الثاني: مظاهر الشعر العذري الأندلسي وسماته وخصائصه
45.....	المبحث الأول: مظاهر الغزل العذري الأندلسي
45.....	أولاً: العذرية مذهب في الحياة والشعر: ابن الحداد الوادي آشي
58.....	ثانيًا: العذرية صبغة غالبية على الشعر: ابن عبد ربه الأندلسي
66.....	ثالثًا: العذرية مجال للإبداع: ابن اللبّانة الداني

77.....	المبحث الثاني: سمات الغزل العذري الأندلسي
77.....	أولاً: العفة العذرية:
82.....	ثانياً: الحب العذري والزمن:
84.....	ثالثاً: العاطفة العذرية:
87.....	رابعاً: الواقعية العذرية:
91.....	خامساً: توحيد المحبوب في الحب العذري:
92.....	المبحث الثالث: الخصائص الفنية في للشعر العذري في الأندلس
92.....	الملاحم الأسلوبية:
93.....	المعاني:
94.....	الموسيقى:
95.....	الصورة الشعرية:
95.....	بنية القصيدة العذرية:
98.....	الخاتمة:
101.....	المصادر والمراجع:

EL-ENDELÛSİYYE FÎ Şİ'RÎ'L-GAZEL EL-UZRÎ EL-ENDELÛSÎ HATTÂ NİHÂYETİ ASRÎ'L-MURÂBİTÎN	
Tezin Yazarı : Mohamed MALAK	Danışman : Doç. Dr.Soumia HAJNAYEF
KabulTarihi : 07.09.2018	Sayfa Sayısı : ix + 106 s.
Anabilim Dalı: Temel İslam Bilimleri	Bilim Dalı : İslam Araştırmaları (Arapça)
Bu çalışma genelde aşk, özelde ise platonik aşktan bahsederek ve (Endülüslülük) kavramına açıklık getirerek, Murabıtlar döneminin sonuna kadar Endülüs platonik aşk şiirinde Endülüslülük konusunu ele almaktadır. Daha sonra Endülüs platonik aşk şiiri üzerinde etkili olan sosyal, siyasal, doğal ortam gibi faktörler ile edebiyatın geliştiği o çağın kültür ve medeniyet çevresi hakkında bilgi vermektedir. Ayrıca bu çalışma, bu şiir türünü ortaya koyma yöntemlerine örnek olarak üç şairin şiirlerini ele alarak Endülüs platonik aşk şiiri biçimlerini ele almaktadır. Bu çalışma ayrıca Endülüs'teki platonik aşk şairlerinin şiirlerinde ortaya çıkan platonik aşkın özelliklerine de değindi. Daha sonra Endülüs platonik aşk şiirinin teknik özellikleri hakkında bir çalışmaya yer verdi. Tüm bunları analitik betimleme yöntemi ile gerçekleştirdi.	
AnahtarKelimeler: El-Endelüs, El-Uzriyy, Gazel, Arapça, Şiir	

عنوان البحث : الأندلسية في شعر الغزل العذري الأندلسي حتى نهاية عصر المرابطين	
إشراف: الأستاذة الدكتورة سميرة حاج نايف	اسم الباحث: محمد ملاك
عدد الصفحات: ٩ مقدمة + ١٠٦ صفحات	تاريخ القبول: ٢٠١٨ / ٠٩ / ٠٧
الشعبة: الدراسات الإسلامية (العربية)	القسم: العلوم الإسلامية الأساسية
يتناول هذا البحث موضوع الأندلسية في شعر الغزل العذري الأندلسي حتى نهاية عصر المرابطين، من خلال الحديث عن الغزل بشكل عام، والعذري منه على وجه خاص. وتوضيح معنى (الأندلسية)، ثم انتقل البحث إلى بيان العوامل المؤثرة في شعر الغزل العذري الأندلسي، من مثل البيئة الاجتماعية والسياسية، والبيئة الطبيعية، والمحيط الثقافي والحضاري الذي تطور فيه الأدب في ذلك العصر، كما اهتم البحث بدراسة مظاهر الغزل العذري الأندلسي، من خلال دراسة نتائج ثلاثة شعراء كنماذج عن طرق إبداع هذا الغرض الشعري، وتعرضت الدراسة لسمات الغزل العذري التي ظهرت في شعر العذريين في الأندلس. ثم أتبع ذلك بدراسة الخصائص الفنية للشعر العذري الأندلسي. وكل ذلك وفق المنهج الوصفي التحليلي.	
كلمات مفتاحية: الأندلس، العذري، الغزل، العربية، الشعر	

Thesis Title: AndalusianPoetry in AndalusianPlatonicPoetryUntilTheEnd of The Age of Almoravid	
Thesis Author: MohamedMALAK	Advisor: Doç. Dr.Soumia HAJNAYEF
KabulTarihi: 07.09.2018	Total Number of Pages: ix + 106 p.
Department: Temel İslam Bilimleri	Field of Study: Temel İslam Bilimleri
This research deals with the Andalusian theme of Andalusian platonicpoetry until the end of the Almoravid era, by talking about erotic poetry in general, and the platonicpoetry in particular. And the clarification of the meaning (Andalusia), and then moved the research to the factors influencing the poetry of Andalusian, such as the social and political environment, the natural environment, and the cultural and cultural environment in which the development of literature in that era, and research the study of the manifestations of Andalusian yarn, The study of the production of three poets as models on the ways of creativity of this poetic purpose, and the study of the characteristics of platonicpoetry that appeared in the poetry of Erotic poetry in Andalusia. And then followed by studying the technical characteristics of Andalusian platonicpoetry. All according to the descriptive analytical approach.	

Keywords: Andalus, Virgin, Yarn, Arabic, Poetry

السيرة الذاتية

محمد أحمد منير ملاك، من مواليد حلب، في عام ١٩٧٧، درس الابتدائية والإعدادية والثانوية، في حلب، وتخرج في كلية الآداب والعلوم الإنسانية – قسم اللغة العربية جامعة حلب عام ٢٠٠٥، وبدأ دراسته للماجستير في جامعة حلب مأنهى السنة التحضيرية ولم يتمكن من مناقشة البحث بسبب ظروف الحرب، يعمل الآن مدرسا للغة العربية في مدرسة المناهل الدولية في السلطان غازي في استانبول ، متزوج وأب لطفلين: زينب وعبد الله.

Özgeçmiş

Halep'te 1977 yılında doğan **MohamedAhmedMounir Malak**, Halep'te ilkokul, ortaokul ve ortaokul eğitimi almış, 2005 yılında Halep Üniversitesi Arap Dili ve Edebiyat Fakültesi'nden mezun olmuştur. Halep Üniversitesi'nde çalışmalarına başlamıştır. Savaşın koşullarından dolayı, İstanbul Sultan Gazi'deki Manahil Uluslararası Okulu'nda Arapça öğretmeni olarak çalışmaktadır.Evli ve iki çocuk sahibidir.

المدخل إلى البحث

يعدُّ شعر الغزل قديماً قَدَم الإنسان، راسخاً رسوخ عواطفه ومشاعره، ونجده يحتل مكانة رفيعة متميزة في الشعر العربي، ويشغل حيزاً كبيراً مما وصل إلينا من الشعر العربي القديم " ولعل الكثرة الكثيرة من الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا تكاد تكون قاصرة على الغزل أو متصلة به بسبب "(١)، وهو يشكّل القسم الوحيد لأغراض الشعر الأخرى من مديح وهجاء وفخر ورثاء وما إلى ذلك " فالغزل كان أصيلاً في النفس العربية قبل الإسلام، والأغراض الأخرى كانت في كثير من المواقف وعند كثير من الشعراء تنبعث به وتحرك في إثارتها "(٢)؛ ولعل غزارة شعر الغزل ووفرة مقاديره في تراثنا الأدبي " تلفتنا إلى ذاتية الشعر العربي وتطلعنا على فرديته، فالشاعر لم يكن لسان قبيلته فحسب، ولكنه كان لساناً معبراً عن وجوده النفسي وعواطفه الخاصة.. إنه لم يكن بوق القبيلة فقط ولكنه كان قيثارته نفسه وصدى لقبيلته بعد ذلك " (٣)

لقد كان لهذا اللون الشعري أهمية بالغة لدى العرب في مختلف العصور، " إذ كان النَّاس لا ينصتون لشيء إنصاتهم إلى سماع شعر الغزل، ولا يحتفون بشيء احتفاءهم بحفظه وروايته " (٤). ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنَّ شعر الغزل يصوِّر حياة النَّاس كما يصوِّر حياة الفرد، فعندما يصوِّر الشاعر عواطفه وانفعالاته وحبه يتفاعل معه من يسمعه لأنه يصور حالات عامة تنطبق في معظم الأحيان على جميع الناس، فذات الشاعر مرآة ذواتهم، وشعره يشكل صورةً لحياتهم، وغزله وعواطفه صدى لعواطفهم ومشاعرهم.

وشعر الغزل - بما ينطوي عليه من تصوير للحياة وتعبير عن النفوس - يُعدُّ أكبر عون لنا في فهم الحياة الاجتماعية خاصة بجانبها الأنثوي، " لأنَّه يرسم المرأة في لباسها وفي أعضاء جسدها وفي حركاتها وتنقلها ومنهاج عيشها، ويرسم ذوق العصر الذي كانت فيه " (٥) كما يصورها أيضاً من الداخل إذ يصور خلجات قلبها ودفقات عواطفها ورقة أحاسيسها ومشاعرها الدفينة والظاهرة تجاه الرجل، وما يعتريها منه وما يحول بينها وبينه. كما يُعدُّ سفرراً ضخماً يتضمَّن ألواناً من مظاهر الحضارة كالأخلاق والعادات، والملامح الجمالية والتفسيية التي اتَّسم بها المجتمع العربي القديم.

(١) فيصل، شكري: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ص ٢٣.

(٢) يُنظر: المصدر السابق، ص ٢٦.

(٣) يُنظر: المصدر السابق، ص ٢٧.

(٤) الحوفي، أحمد: الغزل في العصر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر، ط ٢، ١٩٦١م، ص ١٧ - ١٨.

(٥) الدهان، محمد سامي: الغزل منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية، دار المعارف، مصر، ط ٣، ص ١٤.

الفصل الأول

شعر الغزل العذري الأندلسي والعوامل المؤثرة به

المبحث الأول: الغزل والغزل العذري الأندلسي لغة واصطلاحاً

أولاً: الغزل لغة واصطلاحاً

الغزل لغة: إنَّ لكلمة الغزل وما يتصل بها من كلمات أخرى كالنَّسب والتَّشبيب معانٍ ومدلولات تتباين تارة وتتقارب تارة أخرى. ولعلماء اللغة والأدباء والنقاد آراء عديدة في هذا الشأن، فمن علماء اللغة العربية مَنْ يرى أنَّ الغزل يعني: "حديث الفتيان إلى الجواري"^(١)، أو "حديث الفتيان والفتيات، واللهو مع النساء، ومُعَاذِلُهُنَّ: مُحَادَثُهُنَّ ومُزاودتهنَّ، والتَّغَزُّل: التَّكَلُّف لذلك"^(٢).

ولا يختلف معنى النسب والتشبيب عن معنى الغزل عندهم أيضاً، فابن سيده (٤٥٨-) يقول: "والتشبيب مثله"^(٣) ويعني: مثل الغزل. وابن منظور يقول: "...نَسَبَ بالنساء يَنْسِبُ وَيَنْسِبُ نَسَباً وَنَسِيباً وَمَنْسِبَةً؛ شَبَّبَ يَحِبُّ فِي الشَّعْرِ وَتَغَزَّلَ"^(٤) وفي موضع آخر يقول: "...وهو يُشَبِّبُ بها أي يَنْسِبُ بها"^(٥)

وليس ثمة فروق كبيرة بين مدلولات هذه الكلمات المترادفة في كتب الأدباء والنقاد القدماء، فهم لم يميزوا في الاستخدام بينها، على أنَّ بعضهم قد فرق بينها من جهة التنظير فحسب، فالغزل والتشبيب والنسب ترد بمعنى واحد في بعض مؤلفات الجاحظ (٢٥٥-).^(٦) ومحمد بن سلام الجمحي (٢٣٢-) يجمع بين الغزل والنسب والتشبيب للتعبير عن مفهوم واحد، إذ قال في معرض حديثه عن عبيد الله بن قيس الرقيات^(٧): "وكان غزلاً، وأغزل من شعره شعر عمر بن أبي ربيعة"^(٨)، وكان عمر يصرِّح بالغزل، ولا يهجو ولا يمدح وكان عبيد الله ينسب ولا يصرح"^(٩) وذكر في معرض حديثه

(١) ابن سيده، علي بن إسماعيل، المخصص، طبع بولاق، مصر، ج ٤، ص ٥٤ - ٥٥.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، مادة (غزل).

(٣) ابن سيده، المخصص، ج ٤، ص ٥٤ - ٥٥.

(٤) لسان العرب، مادة (نَسَب)

(٥) المصدر نفسه، مادة (شَبَّب)

(٦) ينظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج ٢، ص ١١٣ وما بعدها.

(٧) هو عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك، من بني عامر بن لؤي: شاعر قريش في العصر الأموي. أكثر شعره الغزل والنسب، وله مدح وفخر. ولقب بابن قيس الرقيات لأنه كان يتغزل بثلاث نسوة، اسم كل واحدة منهن رقية، توفي سنة ٨٥. الأعلام للزركلي: ج ٤، ص ١٩٦.

(٨) عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، أبو الخطاب: أرق شعراء عصره، من طبقة جرير والفرزدق. ولم يكن في قريش أشعر منه. مات غرقاً. توفي سنة ٩٣. الأعلام للزركلي: ج ٥، ص ٥٢.

(٩) طبقات فحول الشعراء: ج ٢، ص ٦٤٨.

عن كثير عزة^(١) قائلاً "وكان لكثير في التشبيب نصيب وافر وجميل مقدم عليه، وعلى أصحاب النسيب جميعاً في النسيب"^(٢)، ثم إن أبا تمام في حماسته، أفرد باباً واحداً لهذا الغرض الشعري تحت عنوان (النسيب) يشمل الغزل والتشبيب لأنه لم يفرد لأي منهما باباً خاصاً، وقد كانت قصائده ومقطوعاته المختارة في هذا الغرض تشمل كل المعاني التي تتعلق بعاطفة الحب والعلاقة بين الرجل والمرأة، وهذا يعني أن الغزل والتشبيب والنسيب عنده بمعنى واحد^(٣)، وكذلك الشأن عند ابن قتيبة الذي جعل النسيب والتشبيب في معنى واحد^(٤)، إلا أن قدامة بن جعفر (-٣٣٧) فرق بين الغزل والنسيب، فقال: "إن الغزل هو... التصابي والاشتهار بمودات النساء.. والميل إليهن بالشمال الحلوة"^(٥) ووافقه ابن رشيق (-٤٦٣) في رأيه فقال أيضاً إنه: "إلف النساء، والتخلُّق بما يوافقهن، والنسيب عنده هو ذكر ذلك والخبر عنه." ^(٦)

وعمد الأدباء وعلماء اللغة الذين فرقوا بين معاني هذه الكلمات إلى التفصيل والتفريع في معنى كلمة الغزل الأصلي، فجعلوا كل كلمة من مرادفاتهما تختص بجانب من المعنى الأصلي العام، وهو الحديث عن عاطفة الحب، ووصف العلاقة بين الرجل والمرأة من حديث إليها أو عنها؛ فالتشبيب والغزل هو الحديث إلى النساء، ومودتهن والاشتهار بذلك، والنسيب الحديث عنهن وعن حبهن. ولكن معظم الأدباء واللغويين القدماء - إن لم نقل جميعهم - كانوا لا يرون خلافاً جوهرياً بين معاني تلك الكلمات، وإنما كانوا يوردونها في معاني متقاربة جداً. أمّا عند الباحثين المحدثين فإننا نجد في آرائهم خلافات واضحة في هذا الموضوع، فعلى حين ينهج بعضهم نهج اللغويين والأدباء القدماء، فلا يفرقون على نحو جوهري بين المعاني المرادفة لكلمة الغزل، كما نرى عند الدكتور مصطفى هذارة^(٧)، والدكتور أحمد الحوفي^(٨)، والدكتور شوقي ضيف^(٩)، والدكتور أحمد أحمد بدوي^(١٠)، وسعيد دعبس^(١١)، وحسن جبار محمد^(١٢) وغيرهم، نجد

(١) كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر: شاعر، متيم مشهور. من أهل المدينة. أكثر إقامته بمصر. كان عفيفاً في حبه توفي بالمدينة سنة ١٠٥.

(٢) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٥٤٥.

(٣) ينظر شرح حماسة أبي تمام: ج ٢، ص ٧٥٥.

(٤) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٢، ج ١، ص ٧٤، وما بعدها.

(٥) ابن جعفر، قدامة: نقد الشعر، شرح: محمد عيسى منون، المطبعة الميمنية، ١٩٣٤، ص ٧٣-٧٤.

(٦) القيرواني، ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٢، ١٩٥٥ م، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ج ٢، ص ١١٧.

(٧) هذارة، محمد مصطفى: اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، دار المعارف بمصر، بدون تاريخ، ص ٥٠٠.

(٨) الحوفي، أحمد: الغزل في العصر الجاهلي، ص ١٠ وما بعدها.

(٩) ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط ٦، ص ٢١٢.

(١٠) بدوي، أحمد أحمد: أسس النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة، مصر، القاهرة، ص ١٣٩.

(١١) دعبس، سعيد: الغزل في الشعر العربي الحديث، المكتبة الوطنية ببنغازي، والقاهرة، مصر، ط ١ (١٩٧١ م) ص ٩.

بعضهم الآخر لا سيّما المستشرقون يحاول وضع بعض الفروق لمعاني الكلمة، وبدا ذلك في آراء المستشرقين فالمستشرق (بلاشير) يطلق كلمة النسيب على الشعر الذي يصوّر فيه الشاعر مشاعره وذكرياته عن حبه القديم من خلال وصف الأطلال، مما يوحي بأنّ النسيب يعني شعر الغزل الذي كان يسوقه الشعراء في مطالع قصائدهم، أما الغزل فهو: الشعر الذي يتجاوز النمط السائد في الحديث عن الأطلال والرسوم، ويجنح إلى تصوير قصة الحب بما تنطوي عليه من أحداث ومغامرات عاطفية معتمداً الصدق في تصوير الحياة الجديدة بكل جزئياتها^(١) والنسيب عند المستشرق (فاديه) تلميذ (بلاشير): حديث الشاعر عن حبه المنصرم الضائع، معتمداً في ذلك على موضوعات ثانوية، مثل رحيل الأحبة، وخطاب الحبيب لمحبوبته عند زيارته إياها، ونواح الحمام، والبكاء على الأطلال^(٢)، وما إلى ذلك. وهو عنده ينطوي على عناصر عذرية متعددة، فيعتمد الحب الذي يتّصف بالشقاء والألم، والعقبات التي تحول دون تحقيق غاياته وآماله، وهو تصوير لحب ماضٍ قديم، وفيه تظهر المرأة المحبوبة قاسية، ومثالية في جمالها وفتنتها، وهو بحثٌ دائمٌ عمّا هو مجهول، حيث يزداد الشاعر تعلقاً بالذكرى أكثر من تعلقه بالشخص المحبوب^(٣). لكنّ التشبيب في رأيه هو إلحاح الشاعر الدائم في طلب المرأة واتباعها، وهذا مالا نجده في النسيب^(٤). ويضيف (فاديه) بأنّ عناصر المجتمع الحجازي - بما انطوت عليه من بروز عناصر اجتماعية جديدة - تميل إلى التشبيب أكثر من ميلها إلى النسيب، لأنّ التشبيب يحكي حياة المجتمع، ويصوّر ملاذّ أهله ومتعه الجديدة^(٥). وهكذا فإنّ التشبيب يغدو لديه شيئاً متغيراً، فهو ليس كالنسيب محدد القواعد، وأهم ما يفرّق بينهما أنّ النسيب يعتمد التذكر في حين يبتغي التشبيب مجرد التألّق الأدبي^(٦). وقد تبع الطاهر لبيب نهج فاديه وبلاشير في فهمهم لكلمة النسيب، إلا أنّه عدّ الغزل الحجازي في العصر الأموي نسبياً، ولكنّه متطوّر عن سابقه، فلم تعد المرأة فيه موضوعاً للذكرى الغامضة، بل أصبحت هي الموضوع الرئيس الذي تدور حوله قصائد الشعراء آنذاك^(٧).

(١) محمد، حسن جبار: الملامح الرمزية في الغزل العربي إلى نهاية العصر الأموي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٢ م. ص ١٤.

(٢) يُنظر: بلاشير، ريجيس، تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٤ م، ج ٣، ص ١٤٧-١٤٨.

(٣) يُنظر: فاديه، جين كلاود، الغزل عند العرب، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٥ م. ج ١ ص ٤٦ وما بعدها، و ص ٤٩ - ٥٠.

(٤) يُنظر: فاديه، جين كلاود، الغزل عند العرب، ج ١، ص ١٠٠ و ١٠٢ و ٢٨٢.

(٥) المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٦) المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٧ و ١٩٩ - ٢٠٠.

(٧) يُنظر: فاديه، جين كلاود، الغزل عند العرب، ج ١، ص ١٨٥.

(٨) يُنظر: لبيب، الطاهر: سوسيولوجيا الغزل العربي - الشعر العذري نموذجاً، ترجمة: مصطفى المنساوي، دار الطليعة، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٧٨ م، ص ٤٩ وما بعدها.

مما سبق نرى أنَّ الخلافات التي دارت حول المعاني المتقاربة للغزل والنسيب والتشبيب بسيطة عند القدماء من اللغويين والتَّقاد والأدباء، في حين يجعل منها بعض المحدثين منطلقاً لنظرة مغايرة في دراسة شعر الغزل العربي، وجعلوا بينها فروقاً جوهرية، بعيدة عن طبيعة اللغة وسياقاتها العاطفية.

ثانياً: الغزل العذري لغة واصطلاحاً:

تتضمن مادة (عَذَرَ) في المعاجم اللغوية على معانٍ عدة، أشهر هذه المعاني:

- العُذْر: الحُجَّة التي يعتذر بها للخروج من الذنب، قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿يَعْتَذِرُونَ

إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ

عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّوتُ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿^(١)

- اعتذار المنازل: دُروسها وذهاب معالمها قال الشاعر ابن أحمد الباهلي^(٢):

أم كنت تعرف آيات، فقد جعلت أطلال إلفك بالودكاء^(٣) تَعْتَذِرُ

- تعذّر الأمر: عدم استقامته؛ أي صعوبته وتعسره.

- العُدرة: البكارة، وجارية عذراء: بكر لم يمسه رجل^(٤).

وذكر الزبيدي (-١٢٠٥) أنَّ من المجاز تسمية الرملة التي لم توطأ، والدُّرة التي لم تُثَقَّب بالعذراء، والعذراء أيضاً اسم مدينة النبي ﷺ سُمِّيَتْ بذلك؛ لأنها لم تنل بمكروه، ولا أصيب سكانها بأداة عدوٍّ، والعذراء لقب مريم بنت عمران اقترن بذكرها؛ لأنها البكر الوحيدة التي وَلَدَتْ دون أن تُوطَأ^(٥).

(١) سورة التوبة، الآية ٩٤.

(٢) أحمد بن حاتم الباهلي، أبو نصر: أديب، من أهل البصرة. روى عن الأصمعي كتبه كلها. له (أبيات المعاني) و(اشتقاق الأسماء) و(ما تلحن فيه العامة) وغير ذلك توفي (-٢٣١). الأعلام للزركلي: ج ١، ص ١٠٩.

(٣) الودكاء: اسم موضع.

(٤) لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، مادة (عَذَرَ).

(٥) يُنظر: الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر، ط ١، سنة ١٣٠٦ هـ، مادة (عَذَرَ).

وذكر الحاتمي (٣٨٨-) في أنّ العرب سمّوا الخمرة التي لم تفتض بمزاج أو لم تُبزل من دِنِّ عذراء^(١) واستشهد على ذلك بقول الأخطل: (٢)

عَذْرَاءُ لَمْ تَحْتَلِ الْخَطَّابُ بِحُجَّتِهَا حَتَّاجَتَاهَا عِبَادِي بِدِينَارِ★

- عُدَّة: قبيلة في اليمن، يرتد نسبها إلى قضاة. ذكر الزبيدي أنهم بنو الحاف بن قضاة، وهم مشهورون بالعشق والعفة، ومنهم جميل بن معمر^(٣) وصاحبته بثينة، وعروة بن حزام^(٤) صاحب عفراء^(٥)، وإليهم يُنسب الهوى العُدري، فقد ورد في "المعجم الوسيط" قولهم "هوى عُدري: عفيف، نسبة إلى بني عُدرة؛ لاشتغالهم به"^(٦)

ولم تكن المعاني السابقة - بحكم اشتقاقها من جذر ثلاثي واحد - منفصلة عن بعضها، بل كان يجمعها معنى عام مشترك هو العفاف والاستغفار والطهر والمثالية.

ومصطلح الحب أو الغزل العُدري، اكتسب اسمه من قبيلة بني عُدرة، التي عُرفت بهذا اللون من الحب أو الغزل العفيف، وبكثرة عشاقها المتيمين، الذين اشتهروا بالصباة والعفة حيث أنهم إذا أُحِبُّوا ماتوا، فصاروا رمزاً لهذا الحب العفيف. قال رجل منهم لعروة بن الزبير: "والله لقد تركت بالحي ثلاثين قد خامرهم السل"، وما بهم من داء إلا الحب "^(٧) و" قال

(١) الحاتمي، أبو علي محمد بن الحسن، الرسالة الموضحة (في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره)، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، دار بيروت، بيروت، سنة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م، ص ١٠٢.

(٢) شعر الأخطل، أبي مالك غياث بن غوث التغلبي: تحقيق: د. فخر الدين قباوة، ج ١، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٢ سنة ١٩٧٩ م / ١٣٩٩ هـ ★ تحتل الخطاب بحجتها: لم يشهدوها ولم يروا جمالها. العبادي من العباد: قوم من النصارى في الحيرة. والمراد أن تلك الخمرة كانت بكرًا لم يحتس منها من قبل، فلم تكد تسفر للخطاب حتى هرع أحد العباديين العارفين بطيب عنصر الخمرة إلى ابتلاعها، ناقداً ثمنها بالدنانير.

(٣) هو جميل بن عبد الله بن معمر العُدري القضاعي، أبو عمرو: شاعر، من عشاق العرب. شعره يذوب رقة، أكثره في النسيب والغزل والفخر. توفي في مصر سنة ٨٢. الأعلام للزركلي: ج ٢، ص ١٣٨-١٣٩.

(٤) هو عروة بن حزام بن مهاجر الضبي، من بني عُدرة: شاعر، من مَتَمِّي العرب. توفي في وادي القرى سنة ٣٠. الأعلام للزركلي: ج ٤، ص ٢٢٦.

(٥) تاج العروس: مادة (عَدَرَ).

(٦) المعجم الوسيط: أخرجه إبراهيم مصطفى، وحامد عبد القادر، وأحمد حسن الزيات، ومحمد علي النجار، أشرف على طبعه عبد السلام هارون، ج ٢، مجمع اللغة العربية، القاهرة، سنة ١٩٦١ م / ١٣٨١ هـ، مادة (عذر).

(٧) السراج، أبو محمد جعفر، مصارع العشاق، طبعة دار صادر، بيروت، سنة ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م، المجلد الأول، ص ٤٢.

سعيد بن عُقبة لأعرابي: ممن الرجل؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا، قال: عذري ورب الكعبة، فقلت له: ومم ذاك؟ قال: في نساءنا صباحة وفي رجالنا عفة" (١) والهووى العذري؛ هوى عفيف أُسْقِطَتْ عنه الشهوة الجسدية وتبرأ منها.

وعلى الرغم من تعدد تعريفات الأدباء والباحثين للحب أو الغزل العذري، إلا أنهم أجمعوا على أن أهم ميزة وأبرز صفة فيه هي العفة. فالكتب التراثية التي تناولت موضوع الحب، تحدّثت عن الحب العذري تحت مفهوم العفة، فابن داود الظاهري عقد لهذا اللون من الحب فصلاً في كتابه " الزهرة " عنوانه: من كان ظريفاً فليكن عفيفاً (٢) بيّن فيه أنّ العفة في هذا الحب تعمل على تخليده وصونه من الدنس، يقول: " ولو لم تكن عفة المتحابين عن الأدناس، وتحاميتها ما يُنكر في عُرف كافة النَّاس، مُحرّماً في الشرائع، ولا مستقبحاً في الطبائع، لكان الواجب على كلّ واحدٍ منهما تركه إبقاءً وُدّه عند صاحبه، وإبقاءً على وُدِّ صاحبه عنده " (٣) والغزل العفيف يتسم بنوع من التسامي نحو عواطف نزيهة، وترفع عن المعاني الحسية والصور المثيرة والإحساس " بنوع من القلق والاضطراب الذي يحول دون أن يتذوق العاشق السعادة حتى ولو كان قريباً ممن يهواه " (٤) ورأى ابن حزم الأندلسي (٤٥٦-) في كتابه أنّ هذا الحبّ المترفع عن موضوع الشهوة هو " استحسان رُوحاني وامتزاج نَفْساني " (٥) فالاستحسان لديه للروح، والامتزاج عنده لقوى النفس؛ وذلك لأنّ الاستحسان إذا كان للصورة الجسدية أصبح شهوة، يقول: " وأما ما يقع من أول وهلة ببعض أغراض الاستحسان الجسدي، واستطراف البصر الذي لا يجاوز الألوان، فهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة " (٦)

ويتفق معظم الباحثين والأدباء المحدثين على اختلاف اتجاهاتهم على خصائص معينة، تثبت أنّ الحب العذري في الأصل حب عفيف، فهذا يوسف خليف يعرفه بأنّه: " حب روحي عفيف طاهر، لا سلطان لشهوات الجسد، أو نوازع الغريزة

(١) الجوزية، ابن القيم، روضة المحبين ونزهة المشتاقين: طبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، سنة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م، ص ٣٣٧.

(٢) الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود، الزهرة، حققه وقدم له وعلّق عليه: د. إبراهيم السامرائي، ج ١، مكتبة المنار، الأردن - الزرقاء، ط ٢، سنة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م، ص ١٧٧.

(٣) الزهرة: أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني، ص ١٧٧

(٤) السعيد، محمد مجيد: الشعر في عهد المرابطين والملوحدين، الدار العربي للموسوعات، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥ م، ص ١٥٠-١٥١، وفكرته هذه أخذها عن هنري بيريس:

(H: La poesieAndalouseenArabeclasseauxisiele,peres) (p:408 Paris 1937

(٥) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاف: ضبط نصّه وحرر هوامشه: الطاهر أحمد مكّي، مطبعة دار المعارف، ط ٢٠، سنة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م، ص ٢٢.

(٦) المصدر السابق: ص ٤٥.

عليه " (١) ويرى زكي مبارك أنه " حب خالص من شوائب الدنس والرجس، هو حب طاهر شريف، لا يعرف تحيزات المآثم، ولا مندريات الأهواء " (٢)

ويقول عنه موسى سليمان إنه " حب يؤدي بصاحبه إلى الهزال والاصفرار والنحول ثم الموت، وهو حب طاهر، لا يعترف بحق الجسد وشهواته وتمتعه بلذات الحب " (٣)

وتعود جذور الغزل العذري الذي شاع وانتشر أيام بني أمية إلى العصر الجاهلي ممثلة في الشعراء المتيمنين الذين وضعوا اللبنة الأولى في صرح هذا اللون من الحب.

فمن ينعم النظر في قصص عشق هؤلاء الشعراء، يجدها تماثل في صورتها العامة قصص عشق الشعراء العذريين، وتتلخص هذه الصورة في أنّ شاباً من فتيان البادية يحب إحدى فتيات قبيلته أو ابنة عمه في أغلب الأحيان، أو فتاة من قبيلة أخرى أحياناً أخرى، ثم يخطبها إلى أهلها، فيرفضون تزويجها منه لفقره أو لاشتهار حبه لها. وقد يتحقق للعاشقين أملهما في الزواج، ولكنهما لا يلبثان أن يفترقا، بسبب بعض العقبات التي تظهر فيما بعد. ثم تُزوّج الفتاة من شخص آخر، فيشتد هيامه بها، ويعظم وجده بها، وينتهي به الأمر إما بالجنون، أو بالسقوط صريعاً على فراش المرض (٤).

فمن خلال قصص المحبين والعشاق المعروفة والمشهورة كقصّة عشق المرقش الأكبر (٥) ابنة عمه أسماء، وقصة حب عبد الله بن العجلان لهند (٦)، وقصة قيس بن الملوّح وابنة عمه ليلى (٧) وقيس بن ذُرّيج ولبنى (٨)، يتبين لنا أن العناصر

(١) خليف، يوسف، الحب المثالي عند العرب، طبعة دار المعارف، مصر، سنة ١٩٦١ م.

(٢) مبارك، زكي، العشاق الثلاثة: طبعة المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص ١١.

(٣) سليمان، موسى، الحب العذري: طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت، ط ٣٠، سنة ١٩٦١ م، ص ٣٩ - ٤٠.

(٤) يُنظر: الحب المثالي عند العرب: ص ٦٧ - ٦٨.

(٥) المرقش الأكبر: اسمه ربيعة بن سعد بن مالك، ويقال هو عمرو بن سعد بن مالك، وشُي المرقش لقوله:

الدار قفر والرسوم كما
رقش في ظهر الأديم قلم

الأعلام، للزركلي: ج ٥، ص ٩٥.

(٦) عبد الله بن العجلان: نجدي جاهلي من عشاق العرب المشهورين، وهند امرأة من قومه من بني نهد. الأعلام للزركلي، ج ٤، ص ١٠٣.

(٧) الأسفهانى، أبو الفرج، الأغاني، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، مصوّر عن طبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م، ج ٢، ص ١١ - ٢٦.

(٨) المصدر السابق: ج ٩، ص ١٨١ - ٢١٩.

الأساسية في قصص الحب العذري تكاد تكون واحدة وهي: العشق والخطبة والردّ والرحلة والزواج من أجنبي واستمرار العاشق في عشقه وملاحقته للمحبوبة^(١).

أما أشعار العذريين بشكل عام فقد كانت تصويراً لمأساة قصة الحب العذري التي عاشها أصحابها بكل جوانبها وتفصيلها، كما كانت تغنياً بعاطفة الحب العفيف الطاهر الذي آمنوا به، فنراهم يرددون معاني العفة والطهر، ويؤكدون على مبدأ الواحدية في الحب، إذ إن كل شاعر منهم كان قد قصر غزله وقصائده على محبوبة واحدة، تغنى بها واقترن اسمه باسمها، كما حفلت أشعارهم بالشكوى من الكبت والحرم، ولذلك اتّسمت بالطبع الحزين الباكي^(٢).



(١) يُنظر: مجلة فصول: مقال (الغزل العذري واضطراب الواقع - د. علي البطل)، المجلد الرابع، العدد الثاني، سنة ١٩٨٤ م، ص ١٨١ - ١٨٣.

(٢) للتوسع يُنظر: الحب المثالي عند العرب: ص ٥٠ وما بعدها.

ثالثاً: مفهوم الأندلسية:

برز فجر الإسلام في الأندلس مع وصول طلائع الجيش الذي أرسله موسى بن نصير بقيادة طارق بن زياد لفتح الأندلس عام (٩٢ هـ - ٧١١ م) فأصبحت الأندلس بقعة من العالم الإسلامي، حيث انتشرت اللغة العربية وغلبت الثقافة العربية الإسلامية الثقافات الأخرى بعد أن وُحِّدَت بين الأجناس البشرية المختلفة الموجودة على أرض الأندلس من عرب وإسبان وبربر وصقالبة. ورغم ذلك لم تحظ الأندلس باعتراف وتقدير المشاركة، بل وقفوا منها ومن أدبائها موقف ازدراء وانتقاص ونظروا إليها نظرة استخفاف واستهانة، وقللوا من شأنها وتأثيرها في الحضارة والثقافة الإسلامية، وذلك بسبب بعدها الجغرافي عن العراق مركز العالم الإسلامي والخلافة الإسلامية، واختلاط الأندلسيين بالعنصر الأعجمي من جهة، وبسبب جهلهم بأحوال المغرب البعيد وعدم معرفتهم بالصورة المشرقة للأندلس من جهة أخرى، فقد مضى أبو علي القالي إلى الأندلس وهو لا يعلم شيئاً عن وضعها الثقافي قال: " لَمَّا وَصَلْتُ الْقَيْرَوَانَ وَأَنَا أَعْتَبَرُ مَنْ أَمُرُّ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ، فَأَجِدُهُمْ دَرَجَاتٍ فِي الْغَبَاوَةِ وَقَلَّةِ الْفَهْمِ بِحَسَبِ تَفَاوُثِهِمْ فِي مَوَاضِعِهِمْ مِنْهَا بِالْقُرْبِ وَالْبَعْدِ، حَتَّى كَأَنَّ مَنَازِلَهُمْ مِنَ الطَّرِيقِ هِيَ مَنَازِلُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مُحَاصَّةً وَمُقَايَسَةً.. فَقُلْتُ: إِنْ نَقَّصَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ عَنْ مَقَادِيرِ مَنْ رَأَيْتُ فِي أَفْهَامِهِمْ بِقَدْرِ نُقْصَانِ هَؤُلَاءِ عَمَّنْ قَبْلَهُمْ فَسَاحْتَاجُ إِلَى تَرْجَمَانٍ بِهَذِهِ الْأَوْطَانِ. قَالَ ابْنُ بَسَّامٍ: فَبَلَّغْنِي أَنَّهُ كَانَ يَصِلُ كَلَامُهُ هَذَا بِالتَّعَجُّبِ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْأَفْقِ فِي ذِكَائِهِمْ"^(١) وينفي أبو جعفر أحمد بن محمد بن هارون البغدادي الفكرة الخاطئة المستقرة في ذهن المشرقيين عن وضع الأندلس الأدبي والثقافي في قوله: " وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ بِهَا مَا لَمْ أَتَوَهُمْ أَنْ أَرَاهُ مَعَ نَائِي دَارَهَا، لَقَدْ رَأَيْتُ فَقَهَاً وَشِعْراً وَنُحُويين وَأَدْبَاءً "^(٢).

أما الأندلسيون فكانوا في شوق وحنين دائمين إلى المشرق الإسلامي وتتبع أخباره ومعرفة كل ما يتصل به، لأنَّه أرض آبائهم وجدودهم ووطنهم الأول ومنبع الحضارة والدين الإسلامي، مع تقديرهم العظيم لحضارة المشرق وثقافته وأعلامه تقديرًا كبيراً، مقابل إهمال تام لأخبار الأندلسيين ونتائجهم الأدبي، وعبر ابن بسام عن هذه الحالة من التعلق من قبل الأندلسيين والإهمال من قبل المشاركة بقوله " إِلَّا أَنَّ أَهْلَ هَذَا الْأَفْقِ أَبَوَا إِلَّا مَتَابَعَةَ أَهْلِ الشَّرْقِ، يَرْجِعُونَ إِلَى أَخْبَارِهِمُ الْمَعْتَادَةَ رَجُوعَ الْحَدِيثِ إِلَى قِتَادَةٍ؛ حَتَّى لَوْ نَعَقَ بَتْلُكَ الْآفَاقِ غَرَابٌ، أَوْ طَنَّ بِأَقْصَى الشَّامِ وَالْعِرَاقِ دُبابٌ، لَجِئُوا عَلَى هَذَا صَنْمًا، وَتَلَّوْا ذَلِكَ كِتَابًا مُحْكَمًا، وَأَخْبَارَهُمُ الْبَاهِرَةَ، وَأَشْعَارَهُمُ السَّائِرَةَ، مَرْمَى الْقَصِيَّةِ، وَمُنَاقِخَ الرِّدْيَةِ، لَا يَعْمُرُ بِهَا جَنَّاتٌ وَلَا خُلْدٌ، وَلَا يُصَرَّفُ فِيهَا لِسَانٌ وَلَا يَدٌ "^(٣) من هنا نشأت المفارقة؛ فالأندلسيون يتعلقون بالمشرق ويعجبون بحضارته، والمشاركة يستخفون بكل ما هو أندلسي، وينكرون فضل الأندلسيين. وقد أدت تلك المفارقة إلى قلق عنيف وحاد في نفوس الأندلسيين، إذ دفعهم موقف المشاركة المسرف في الانتقاص إلى المبالغة في محاولة توكيد ذواتهم، وإثبات

(١) ابن بسام، الذخيرة، تحقيق: د. إحسان عباس ق ١، مج ١، ص ١٤-١٥.

(٢) الزبيدي، أبو بكر، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، ص ٢٩٦.

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام الشنتريني، تح: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧م، ق ١، مج ١، ص ١٢.

استقلالهم وامتيانهم. فهم "كانوا يحسون بشبه مركب نقص أمام المشاركة، ولهذا كانوا يميلون غالباً إلى إظهار تفوقهم على كل مشرقي وافد عليهم كما حاول يحيى الغزال إخمال الفنان زرياب، وكما أراد منذر بن سعيد هزيمة أبي علي القسالي، كذلك تصدى كثير من علماء فترة الحجابة لكشف صاعد البغدادي، فكانت بينه وبينهم مناقشات لغوية كثيرة، بلغت أحياناً درجة التحدي، بل انحدرت في بعض الأحيان إلى هوة نصب الحبائل، كل ذلك ليسقط العالم المشرقي فيسقط معه النفوذ الأدبي المشرقي الذي كان يثقل كاهل الأندلسيين" ^(١) كما بدا هذا واضحاً عندما كانوا يتعصبون للدين وللغة تعصباً شكلياً، حيث نراهم "يتعلقون بمذهب مالك مثلاً تعلقاً يوشك أن يكون جموداً، هذا على حين يترخصون في كثير من الأمور ترخصاً ربما كان مخالفة صريحة للدين من أساسه. كذلك نراهم يتعصبون للغة تعصباً ظاهرياً أيضاً، حيث يفتتنون بعلم النحو مثلاً ويقتلونهُ درساً وتأليفاً، ثم في الوقت نفسه يتخذون لحياتهم لغة أبعد ما تكون عن النحو، بل ربما كانت أبعد ما تكون عن العربية نفسها" ^(٢). فبرز لديهم نزوع أخذ يشتد مع تقدم الزمن هو ما نسميه "الأندلسية" ^(٣). وتتمثل الأندلسية في إحساس الأندلسيين بذواتهم وسعيهم إلى إثبات تفوقهم وتأكيده امتيازهم أمام الشعوب في المشرق على الرغم من تأييدهم.

وسبب جهل المشاركة بأحوال الأندلسيين واتخاذهم هذا الموقف منهم هو وضع الأندلس الخاص فيما يخص الخلافة الإسلامية، فقد أشار الدكتور حسين مؤنس إلى أن الأندلس لم تكن ترسل إلى مركز الخلافة شيئاً من جبايته أو أمواله على الرغم من عظيم غناه وكثرة غنائمه، ويؤكد الدكتور مؤنس على أننا "سنظل زماناً طويلاً ولا نفهم السر الذي جعل الخلافة تمضي على هذا النحو من التهاون في شؤون الأندلس، ولسنا نستطيع أن نرد ذلك إلى البعد عن مركز الخلافة، لأن الخلافة لم تحاول ولا مرة واحدة بسط سلطانتها المؤكد عليه ولم تطلب مرة - ولو في شيء من اللين - بنصيبها من أمواله وجباياته" ^(٤). ويخلص الدكتور مؤنس إلى أن الأندلس "لم تكن ولاية تابعة تمام التبعية للخلافة المركزية كمصر أو الشمال الأفريقي مثلاً، ولم يكن كذلك قطراً مستقلاً تمام الاستقلال، وإنما كان له وضع خاص بين بين، كأن يكون جزءاً من الدولة الإسلامية مكماً لإفريقية داخلياً في طاعة الخلفاء يخطب لهم على منابرهم، ولم يزد سلطان الخلفاء فيه على هذا اللون الضعيف من ألوان التبعية إلا قليلاً" ^(٥) وهذا يعني أن الأندلس كان يُقابل بقدر كبير من إهمال المشاركة، وأن العلاقات بين المشرق والأندلس كانت فاترة وهذا انعكس على العلاقات الثقافية آنذاك وقابل هذا الإهمال اهتمام شديد من قبل الأندلسيين بأحوال المشرق، وإجلال كبير له وشوق لمعرفة كل ما يتصل به. وما كثرة

(١) هيكل، أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، ط ١٣، ص ٢٧١.

(٢) يُنظر: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: ص ٥١ - ٥٣.

(٣) للتوسع في مفهوم الأندلسية راجع: الأندلسية وأثرها في أدب الأندلس حتى نهاية عصر الموحدين "رسالة ماجستير" إعداد جمانة

رجب باشا، جامعة حلب، ١٩٩٦، ص ١ - ٧.

(٤) مؤنس، حسين، فجر الأندلس، الشركة العربية للطباعة والنشر - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٩، ص ١٢٤.

(٥) مؤنس، حسين، فجر الأندلس، ص ١٢٤.

الرحلات العلمية إلى بلاد المشرق إلا دليل على تعلقهم بمنابع الثقافة والحضارة العربية فضلاً عن الصلة الدينية القوية التي تربط الأندلس بالشرق.

تبلور الذات الشعرية الأندلسية

عُني الأندلسيون بالشعر كما عني به المشاركة وانتشر عندهم انتشاراً واسعاً بين الخاصة والعامة من العرب ومن سكان البلاد الأصليين الذين استعربوا، وقال الشعر الملوك والأمراء كما قاله وحفظه عامة الناس. كذلك عني بالشعر نساء الأندلس وكان يبنهنّ شاعرات كثيرات. وكانت صناعة الشعر أمراً ضرورياً لمن يريد أن يتصل بالملوك ويجتمع بهم، فقد اهتم الملوك والأمراء بالشعر والشعراء، وذلك بتشجيعهم وإغداق الجوائز عليهم وعقد مجالس خاصة لهم، كما تنافسوا في ضم الأدباء والشعراء إليهم، وكان همُّ معظم أمراء الطوائف أن يجمعوا إلى سلطانهم السياسي سلطة ثقافية.

ومع أنّ الأندلسيين اعتنوا بالشعر عناية كبيرة وانتشر بينهم انتشاراً واسعاً، فإنهم لم يجددوا فيه، فقد كانوا في معظم أعمالهم الأدبية والشعرية مقلدين لشعراء المشرق يرون فيهم المثل الأعلى للغة الأدبي والشعري. وكان هذا التقليد جلياً في بدء العصور الأندلسية إذ جاء الشعر بصبغته البدوية، فوجد الشعراء يرجعون بأساليبهم وأفكارهم إلى الأساليب والأفكار المشرقية، كذلك كانوا يميلون بأخيلتهم وصورهم الشعرية إلى مثل ما كان يميل إليه شعراء المشرق. وبقي الشعر المشرقي أمودجاً لهم في الصناعة والخيال، فكان بعضهم يعيش مع المشرقيين في المعاني والألفاظ ويحذو حذو الشعراء الجاهليين في الاستهلال بالوقوف على الأطلال والتزام الغزل في مطالع القصائد ووصف الليل والنجوم والبوادي ومشهد الرحيل ووصف الراحلة وغيرها من موضوعات الشعر الجاهليين، ويعتمد في ذلك كله على قديم الصور وغريب الألفاظ، حتى وصل بهم الأمر أن أقصى ما كان يطمح إليه الشاعر الأندلسي هو أن يشبّه بشاعر مشرقى ويسمى باسمه فشبهوا ابن هاني بمتنّي الأندلس، ولُقّب ابن زيدون ببحتري المغرب.

إذاً كان الشعر في الأندلس في بداية الوجود العربي في الأندلس يحذو حذو الشعر في المشرق من حيث المواضيع والأغراض أيضاً، فقد نظم شعراء الأندلس الشعر في أغراض المشرقيين من مدح وهجاء وثناء وفخر وحكمة وزهد وغزل بالجنسين ووصف للخمر، كما نظموا في التاريخ والعروض والنحو والصرف والفقه والفلسفة والاجتماع، إلى ما هنالك من أغراض سبقهم إليها شعراء المشرق.

ولعل هناك ما يبرر تقليد الشعراء الأندلسيين لشعراء المشرق ومجاراتهم لهم في الأغراض، ذلك أنّ كثيراً منهم جاؤوا من بلاد المشرق، واستمر اختلاطهم بهم عن طريق وفود المشرقيين إلى الأندلس ورحلات أهل الأندلس لبلدان المشرق. غير أنّ هذا التقليد وهذه المجازاة خفّت شيئاً فشيئاً، إلى أن تبلورت الشخصية الأندلسية وتميزت من أختها المشرقية وذلك في القرنين الثالث والرابع الهجريين، فجاء في الشعر الأندلسي شيء من المعاني المبتكرة والخيالات الجديدة لاسيما في شعر الطبيعة وشعر الوصف، فحاول الشاعر الأندلسي أن يثبت مقدرته وإمكاناته " وليس أدل على عدم التبعية والتقليد من أن الشاعر الأندلسي كان يجاهر بموازنة نتاجه بنتاجه سابقه المشرقي، حين يعالج موضوعاً عاجله، أو يورد

فكرة أورد مثلها، أو يؤلف صورة رسم نظيرها. فهذا ابن عبد ربه مثلاً، يورد نماذج لأبي تمام وغيره من أعلام شعراء المشرق، ثم يورد أشعاراً له في نفس الموضوعات أو مع بعض الأفكار المتشابهة والصور المتقاربة، وهو يشير بهذا إلى مقدرته كشاعر أندلسي، ويحاول إثبات تفوقه على هؤلاء الأعلام " (١)، ومثل ابن شهيد في رسالة التوابع والزوابع. كما ظهرت الروح القومية الأندلسية في الحياة الثقافية وبدا هذا واضحاً في العناية بكل ما هو أندلسي من جمع للتراث الأندلسي، وكتابة تاريخ الأندلس، والترجمة لأعلام هذه البلاد في شتى الميادين " ففي التاريخ الأندلسي يكتب ابن القوطية وغيره، وفي رجال الأندلس يكتب خالد بن سعد، وفي قضاة قرطبة يكتب الحثني، وفي شعراء الأندلس تُكتب عدة كتب، منها في شعراء إقليم البيرة فقط نحو عشرة أجزاء، كما يكتب ابن فرج كتابه (الحقائق) الذي يعارض فيه كتاب (الزهرة) لمحمد بن داود الأصبهاني ويزيد عليه، فقد ذكر ابن داود مائة باب في كل باب مائة بيت، أما ابن فرج فقد ذكر مائتي باب في كل باب مائتا بيت، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً " (٢)

وما هذا الاهتمام الشديد بابتكار المعاني الجديدة والعناية بكل ما هو أندلسي إلا محاولة من الأدباء والشعراء الأندلسيين لإثبات ذواتهم وإثبات تفوقهم على أدباء وشعراء المشرق، مما مهّد لظهور روح أدبية خاصة بالمجتمع العربي الأندلسي، وساعدت على هذا الظهور عوامل ومؤثرات أخرى سنحاول الوقوف - إن شاء الله - على أهمها في المبحث القادم.

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: د. أحمد هيكال، دار المعارف، ط١٣، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: ص ١٩٢-١٩٣.

المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في شعر الغزل العذري الأندلسي

كان الغزل العذري الأندلسي امتداداً للغزل العذري المشرقي بكل ما فيه من عفة وطهارة، فقد احتفظت قصة الحب العذري في الأندلس بالعنصر الرئيس من عناصر قصة الحب العذري، وهو عشق الشاعر لمحبوبته عشقاً عفيفاً طاهراً، أما بقية العناصر من خطبة وردّ ورحلة وزواج من أجنبي فقد طرأ عليها تغيير وتعديل، وحذف وإضافة كي تواكب مسيرة التطور التي شهدتها المجتمع في الأندلس من جميع النواحي؛ الاجتماعية والسياسية والثقافية والحضارية. فالإطار العام الذي دارت فيه معظم أحداث قصة الحب العذري في الأندلس يمكن تلخيصه بما يأتي: هيام الشاعر بامرأة من الحرائر أو الجواري، تبتعد عنه محبوبته إما بسبب الهجرة أو الوشاية أو الزواج أو بيع الجارية، وهكذا تحجب المحبوبة عنه ويُضرب بينه وبينها حجاب، فيعيش يتعذب من ألم فراقها ويرجو عودة أيام الحب السعيدة التي كان يعيشها معها.

وكان للبيئة الأندلسية أثر كبير وواضح في مسيرة الأحداث في قصة الحب العذري الأندلسي. والمتأمل في قصص المحبين في العصر الأندلسي في عهد الفتح والإمارة يجدها قد حافظت على العناصر الموروثة، أكثر من قصص الشعراء الأندلسيين في عهد الخلافة وعصر ملوك الطوائف وحكم المرابطين. ذلك لأن الشعراء الذين عاشوا في عهد الفتح والإمارة كانوا قد قضاوا مرحلة من حياتهم في المشرق، وعاش بعضهم في بوادي نجد والحجاز والبصرة، وانتقلوا إلى مجتمع جديد لكن صلاتهم بمواطنهم كانت كبيرة، وحياتهم الاجتماعية والعاطفية كانت امتداداً لحياة أسلافهم من الشعراء المتيمنين والعذريين، ولم تختلف عنها إلا قليلاً بتأثير البيئة وظروف المعيشة الجديدة.

أما الشعراء الذين عاشوا في عهد الخلافة وعصر ملوك الطوائف فقد ابتعدوا عن منابع البداوة الأموية، وأخذوا يندمجون في الحياة الحضارية الجديدة شيئاً فشيئاً، ويتأثرون بمظاهرها، فأصبحوا يعشقون - في كثير من الأحيان - الجواري اللواتي كنّ منتشرات في المجتمع الأندلسي بشكل كبير. وبما أنّ الجواري كنّ يُبْعَن ويُشْتَرْنَ، فإنّه من الطبيعي أن ينعكس ذلك على قصة الحب العذري، فيجعلها تستبدل بعنصر البيع لرجل أجنبي بعنصر الزواج من رجل أجنبي. لذلك تميزت القصة العذرية في الأندلس من القصة العذرية في المشرق بسبب ظروف وعوامل عدة فرضتها طبيعة المجتمع الأندلسي - الاجتماعية والسياسية والجغرافية والثقافية والحضارية - سأحاول تفصيلها وتبيان مدى تأثيرها في الغزل العذري في الأندلس.

أولاً: البيئة الاجتماعية

تعددت العناصر والأعراق البشرية التي كونت المجتمع الأندلسي وتفاعلت فيما بينها، فامتزجت الثقافات المتنوعة في تلك البيئة الأندلسية، واصطبغ المجتمع الأندلسي بطابع اجتماعي خاص من العادات والتقاليد الاجتماعية، وبلون خاص من مظاهر الحياة العامة وأساليبيها، فقد "ضم المجتمع الأندلسي أجناساً مختلفة من العرب والبربر وصقالبة ويهود وإسبان" (١).

أما العرب فهم العرب الوافدون إلى الأندلس من بلاد المشرق من عراقيين وشاميين وقرشيين، وأما البربر فهم جنود من أصول إفريقية، دخلوا إلى الأندلس مع طارق بن زياد "وعرفوا بتدينهم وشدة تعلقهم بعقيدتهم الإسلامية، فأسهلوا في نشر الدين الإسلامي في بلاد الأندلس" (٢)، وأما الصقالبة فهم الرقيق المجلوبون من أوروبا، وقد استُخدموا جنوداً في الجيوش، وخدموا في القصور، وتعلّموا اللغة العربية وآداب المجتمع الأندلسي، توسع نفوذهم السياسي ووصل بعضهم إلى الحكم كأميري بلنسية مبارك ومظفر، وزاد عددهم في عهد ملوك الطوائف. وأما الإسبان المستعربون فهم النصارى الذين احتفظوا بدينهم الأصلي - مع استعراهم - وقد اندمجوا في المجتمع الأندلسي، واصطنعوا حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وتغلّبت الثقافة العربية على ثقافتهم الأصلية، وأما اليهود فهم من مكونات المجتمع الأندلسي قبل الفتح كانوا مضطهدين من قبل القوط، فعاملهم العرب - هم والإسبان المستعربون - معاملة كريهة، فازدهرت أحوالهم الفكرية والاقتصادية والاجتماعية حتى وصل بعضهم إلى مرتبة الوزارة (٣).

تميز المجتمع الأندلسي نتيجة لاندماج تلك العناصر وانصهارها وتفاعلها فيما بينها ببعض مظاهر الحياة الخاصة، ففي اللباس "ترك الأندلسيون العمام في شرقي البلاد، أما في غربها فكان القضاة والفقهاء يتعممون بعمامة مختلفة عن عمامة المشاركة، ولا تجد في خواص الأندلس وأكثر عوامهم من يمشي دون طيّلسان (٤)، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الشيوخ المعظمون، وغفائر (٥) الصوف كثيراً ما يلبسونها حمراً وخضراً؛ والصُّفَر مخصوصة باليهود، ولا سبيل إلى يهودي أن يتعمّم البتة، والذّؤابة (٦) لا يرخيها إلا العالم، ولا يصرفونها بين الأكتاف، وإنما يُسدلونها من تحت الأذن اليسرى. وهذه الأوضاع التي بالمشرق في العمام لا يعرفها أهل الأندلس، وإن رأوا في رأس مشرقي داخل إلى بلادهم

(١) الشكعة، مصطفى، الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١١، ٢٠٠٥ م، ص ٢١.

(٢) يُنظر: فجر الأندلس: د. حسين مؤنس، ص ٣٨٩.

(٣) للتوسع في مكونات المجتمع الأندلسي: يُنظر: فجر الأندلس: د. حسين مؤنس، ص ٣٩٧ - ٥٤٥.

(٤) هو الثوب الموصول به غطاء الرأس.

(٥) جمع مفردة: غفارة، وهي غطاء على قدر الرأس يُلبس تحت القلنسوة.

(٦) طرف العمامة.

شكلاً منها أظهروا التعجب والاستظراف، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم^(١) وأما لباسهم الحربي وأسلحتهم " فكثيراً ما يتزّيا سلاطينهم وأجنادهم بزيّ النصارى المجاورين لهم، فسلّاحهم كسلّاحهم، وأقبيتهم من الإشكرلاط^(٢) وغيره كأقبيتهم، وكذلك أعلامهم وسروجهم، ومحاربتهم بالترّاس والرّماح الطويلة للطنّ، ولا يعرفون الدبابيس^(٣)، ولا قسيّ العرب، بل يعدّون قسيّ الإفرنج للمحاصرات في البلاد " ^(٤) واستخدم الأندلسيون أنواعاً من الفراء، منها فرو الأرنّب وفرو حيوان الفنك والمرجح أنه ابن عرس^(٥)، كما استنّ المغني زرياب للأندلسيين بعض العادات الخاصة من لبس الثياب وتصنيف الشعر وإعداد الولائم والأطعمة^(٦).

كما كان لاختلاط العنصر العربي في الأندلس بالأجناس الأخرى التي عايشها في الأندلس آثار على تغيير مقاييس الجمال المعروفة في المجتمعات الشرقية، فقد كان للأندلس حظ كبير من الجمال البشري، كحظ بيئتها من الجمال الطبيعي، فتميز الأندلسي بجمال الشكل فاتصف بالبياض المشربّ بحمرة، واعتدال القوام، والوسامة في الملامح، وتمتعت المرأة الأندلسية بحظ كبير من الجمال، ولعلّ أفضل مصدر يصف المرأة في الأندلس، ما وجدناه في الإحاطة من وصف لسان الدين بن الخطيب للنساء الغرناطيات، وهو كما نعتقد وصفٌ ينسحب على معظم نساء بلاد الأندلس، يقول ابن الخطيب: " وحرّيمهم حرّيم جميل، موصوف بالسحر، وتنعمّ الأجسام، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النشر، وخفة الحركات، ونبل الكلام، وحسن المحاورة، إلا أن الطول يندر فيهن، وقد بلغن من التنفن في الزينة لهذا العهد، والمظاهرة بين المصّبغات، والتنفيس بالذهبيات والديباجات، والتّماجن في أشكال الحلي، إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها " ^(٧)

كما شاعت فيهم الشقرة وزرقة العيون " لكثرة النساء اللاتي يتّصفن بتلك الصفات، لاسيما الجوّاري والقيان منهن، فإنّ معظمهنّ من الأوربيات اللاتي جاءت بمجّ ظروف الحرب أو الأسر " ^(٨) فكانوا يفضلون هذه الصفات في المرأة،

(١) يُنظر: نفح الطيب، ج ١، ص ٢٢٣.

(٢) هو نوع من الجوخ قرمزي أحمر.

(٣) عمود على شكل هراوة مدملكة الرأس.

(٤) نفح الطيب، ج ١، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٥) يُنظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، هنري بيريس، ص ٢٨٥.

(٦) يُنظر نفح الطيب، ج ٣، ص ١٢٦ - ١٢٨.

(٧) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنّان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٣ هـ، ١٩٧٣ م، ج ١، ص ١٣٩.

(٨) السعيد، محمد مجيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥ م، ص

فقد " أكثر الشاعر الطليق^(١) من التغزل بالشعر " ^(٢) فهو يحدد الملامح التي يفضلها الأندلسيون في زمانه في قوله [من الكامل]: ^(٣)

وَمُحَيَّرِ اللَّحْظَاتِ تَحْسَبُهُ لَحِيَةً	رَهَنَ مِنْ سِنَةِ الْمَنَامِ مُنَبَّهًا
وبياضُهُ في شُقْرَةٍ فَتَقَارِنَا	حُسْنًا بِلَا ضِدٍّ فَكَانَا أَشْبَهَا
كسلاسلِ الزَّهَبِ المَوَرِّسِ فَوُ	قَ وَجْهِهِ مِنْ لَجِينِ بِالْمَلَا حَةِ قَدْ زَهَا
وكذا الصَّبَاحِ بِيَاضُهُ في شُقْرَةٍ	فَكَأَنَّهُ بِهَمَا غَدَا مُتَشَبِّهًا
وإذا بَدَا التَّوْبِيدُ في وَجَنَاتِهِ	فَكَأَنَّهُ صِرْفُ المَدَامَةِ في المَهَا

وينتصر الفقيه سليمان بن بَطَّال المتلمس في نهاية منافرة شعرية^(٤) للشقرة حيث يقول: [من البسيط] ^(٥)

وشادَنَيْنِ أَلْمَا بي عَلَى مَقَّةٍ	تَنَازَعَا الحُسْنَ في غَايَاتِ مُسْتَبَقِي
كَأَنَّ لَمَّةَ ذَا مِنْ نَرَجِسٍ حُلَقَّتْ	عَلَى بَهَارٍ وَذَا مَسَكٌ عَلَى وَرَقِي
وحَكَّمَا الصَّبَّ في التَّفْضِيلِ بَيْنَهُمَا	وَلَمْ يَخَافَا عَلَيْهِ رَشَوَةَ الحَدَقِ
فَقَامَ يَدِي إِلَى الرِّيمِ حَجَّاهُ	مُبَيِّنًا بِلِسَانٍ مِنْ مَنْطَلِقِي
فَقَالَ وَجْهِي بَدْرٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ	وَلَوْ شَعْرِي مَقْطُوعٌ مِنَ العَسَقِ
وكحلُّ عيني سحرٌ للنهي وكذا	لَكِ الكحلُّ أَحْسَنُ مَا يُعْزَى إِلَى الحَدَقِ
فَقَالَ صَاحِبُهُ: أَحْسَنْتَ وَصَفُكَ لـ	كُنْ فَاسْتَمِعْ لِمَقَالِي فِي مُتَّفَقِي
أَنَا عَلَى أَفْقِي شَمْسُ النِّهَارِ وَلَمْ	تَغْرُبْ وَشُقْرَةُ شَعْرِي شُقْرَةُ الشَّفَقِ

(١) هو مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر، الأموي: من أمراء بني أمية بالأندلس. وكان أديبا شاعرا سجن في أيام المنصور محمد بن أبي عامر، وهو في السادسة عشرة من عمره، ومكث سجيناً ١٦ سنة، وعاش بعد إطلاقه ١٦ سنة. وهذا من نادر الاتفاق. وقيل في سبب سجنه: إنه كان يتعشق جارية رباها أبوه معه، ثم استأثر بها أبوه، فاشتدت غيظه وقتل أباه. ونظم أكثر شعره وهو في السجن. وعرف بالطليق بعد خروجه منه. توفي سنة ٤٠٠. الأعلام للزركلي: ج ٧، ٢٠٨.

(٢) يُنظر طوق الحمامة، تح د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر، ط ٢، ص ٣٩.

(٣) الكتاني، أبو عبد الله محمد، كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق: د. إحسان عباس دار الشروق، بيروت، ط ٣، ١٩٨٦ م، ص ١٢٥.

(٤) تعد المنافرات من الفنون الأدبية التي أسهمت في رسم صورة واقعية للعرب الجاهليين، حيث يذكر المتفاحرون مآثر أنفسهم إن كانوا أفراداً، ومآثر أقوامهم إن كانوا قبائلاً.

(٥) كتاب التشبيهات لابن الكتاني: ١٢٣ - ١٢٤.

والشمس لولا سناها لم يكن شفق
فَضَلَّ ما عِبْتُ في عيني من زرق
يبدو إذا ما أَلَمَّ الليلُ بالأفقي
قَضَيْتُ لِلْمَةِ الشَّقاءَ حينَ حَكَثُ
أَنَّ الأَسِنَّةَ قَدْ تُعْزِي إلى الزَّرَقِ
لوني، كذا حُبُّهُ يَقْضِي على خلقي

فبياض البشرة وزرقة العيون لم يكونا مستحبين في الذوق العربي في المشرق لكنهما هنا مظهران جماليان محبَّبان، هذا الجمال " استرعى أنظار الشعراء ونَبَّه عواطفهم، فانتشر شعر الغزل والتشبيب بالنساء، ووصفوا الجمال الفاتن الذي ملك أَعْيَنَةَ قلوبهم شعراً عاطفياً جميلاً، رقيق العبارة سهل التعابير " (١)

كما أن اختلاط العنصر العربي المسلم في الأندلس مع أبناء الديانات الأخرى كالنصرانية واليهودية، وقوة العلاقات الاجتماعية وروح التعايش التي سادت بين أبناء المجتمع الأندلسي، أدى إلى تعلُّق بعض الفتيان والشعراء المسلمين بفتيات نصرانيات، كتعلُّق تَمَّام بن عامر (٢) " بأَم الوليد بن خلف بن رومان (رومانس) وتحمُّل لوم الناس على ذلك حيث أُمَّا كانت فتاةً بارعة الجمال، سَبَّاءٌ للألباب نصرانية، رآها تَمَّام بن عامر فهام بها وتزوَّجها، فكان أناسٌ يلومونه في ذلك [من الطويل]:

يُكَلِّفُنِي العُذَّالُ صَبْرًا على التي
إِذَا ما قَرَعْتُ النفسَ يوماً فأبصرْتُ
أَبَى الصَّبْرَ عنها أَنْ يَحِلَّ مَحَلَّها
وَكَمْ مِنْ عَزِيزِ النفسِ لَمْ يَلْقَ ذِلَّةً
سَبِيلَ الهُدَى عادَ الهوى فأضَلَّها
عَجِبْتُ لمَعْدُولٍ على حُبِّ نَفْسِهِ
أَقَادَ الهوى مِنْ نَفْسِهِ فَأَذْهَبَها
يُكَلِّفُهُ عُدَّالُهُ أَنْ يَمْلِكُها" (٣)

(١) يُنظر: محمود، نافع، اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثاني الهجري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م، ص ١٩٥.

(٢) تَمَّام بن عامر: هو أبو غالب تَمَّام بن عامر بن أحمد بن غالب بن تَمَّام بن علقمة، وُلِدَ سنة ١٨٤هـ، توفى سنة ٢٨٣هـ، كان عالماً وأديباً وإخبارياً، كما كان شاعراً مكثراً، وله أرجوزة في تاريخ الأندلس قُلِّدَ فيها أرجوزة يحيى بن حكم الغزال. يُنظر: الأعلام للزركلي: ج ٢، ص ٨٢.

(٣) فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، الجزء الرابع (الأدب في المغرب والأندلس): دار العلم للملايين، ١٩٨١م، ط: ٤ ص:

وابن شهيد^(١) يبيت ليلة في إحدى كنائس قرطبة في جوٍ من المتعة والبهجة بين قرع النواقيس والزهور والشراب والقساوسة وسماع تعاويذهم من الزبور وأكل لحم الخنزير، فيقول يصف تلك الليلة: [من الكامل]^(٢)

وَلَرُبَّ حَانَ قَدْ أَدْرَتْ بِدَيْرِهِ	خَمَرَ الصَّبَا مُزَجَّتْ بِصَفْوِ خُمُورِهِ
فِي فِتْيَةٍ جَعَلُوا الرِّقَاقَ تِكَاءَهُمْ	مُتَّصَاغِرِينَ تَحْشُوعاً لَكَبِيرِهِ
يُهْدِي إِلَيْنَا الرِّاحُ كُلُّ مُعْصَفَرٍ	كَالْخَشْفِ خَفَّرَهُ التِّمَاحُ حَفِيرِهِ
وَالْيَ عَلَيَّ بِطَرْفِهِ وَبَكْفِهِ	فَأَمَالَ مِنْ رَأْسِي لِعَبِّ كَبِيرِهِ
وَالْقَسُّ مِمَّا شَاءَ طَوَّلَ مُقَامَنَا	يَدْعُو يُعَوِّدُ حَوْلَنَا بِزُبُورِهِ
وَتَرْتَمِ النَّاقُوسُ عِنْدَ صِلَاتِهِمْ	فَفَتَحْتُ مِنْ عَيْنِي لِرَجْعِ هَدِيرِهِ
يَتَنَاوَلُ الظُّرَفَاءُ فِيهِ وَشُرْبُهُمْ	لِسُلَافِهِ وَالْأَكْلُ مِنْ خِنْزِيرِهِ

كما تعلّق ابن الحداد^(٣) الوادي آشي بفتاة نصرانية اسمها جميلة أو "نوية" كما يحب أن يسميها^(٤) و " استطاع بقدرة فنية أن يضفي الغزل على ذلك الجو النصراني السّمح بأسلوبه الرائع، فحفل شعره بذكر كلّ ما له علاقة بالجو المسيحي كالتثليث والإنجيل وعيسى المسيح والقس والصُّلبان والرُّهبان والتُّسّاك والكنائس "^(٥)، من ذلك يقول^(٦):

[من السريع]

قَلْبِي فِي ذَاتِ الْأُتُيَلَاتِ	رَهَيْنُ لَوَعَاتٍ وَرَوَعَاتِ
فَوَجَّهَا نَحْوَهُمْ إِنَّهُمْ	- وَإِنْ بَعَّوْا - قَبْلَهُ بُغْيَاتِي

(١) أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد، من بني الوضاح، من أشجع، من قيس عيلان، أبو عامر الأشجعي: وزير، من كبار الأندلسيين أدبا وعلماء. مولده ووفاته بقرطبة، توفي سنة ٤٢٦. الأعلام للزركلي: ج ١، ص ١٦٣.

(٢) ابن شهيد، ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمعه وحققه: يعقوب زكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص ١١٥ - ١١٦.

(٣) هو محمد بن أحمد بن عثمان القيسي، أبو عبد الله، ابن الحداد: شاعر أندلسي، توفي بالمرية سنة ٤٨٠. الأعلام للزركلي: ج ٥، ص ٣١٥.

(٤) يُنظر: الذخيرة: ق ١ مج ٢ ص ٦٩٣.

(٥) ابن الحداد، ديوان ابن الحداد الأندلسي، تح: د. يوسف على طویل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٠ م ص ٣٧.

(٦) ديوان ابن الحداد الأندلسي: ص ١٥٦ - ١٥٨. وله عدة قصائد ذكر فيها الأجواء النصرانية، يُنظر القصائد ذوات الأرقام: ٦، ٨، ٤٤، ٥٢، ٦٨.

وَعَرَّجَا يَا فَتَيَّيْ عَامِرٍ	بِالْفَتَيَّاتِ الْعَيْسَى وَوَيَاتِ
فَلِإِنَّ بِي لِلرُّومِ روميَّةً	تَكْنِسُ مَا بَيْنَ الْكَنِيسَاتِ
أَهْمِيْمٌ فِيهَا، وَالْهَوَى ضَلَّةٌ	بَيْنَ صَوَامِيْعٍ وَبَيْعَاتِ
أُفْصِحْ وَحَدِي يَوْمَ فَصَحْ لَهُم	بَيْنَ الْأَرْطَطَوَالِ دُوحَاتِ
وَقَدْ أَتَوْا مِنْهُ إِلَى مَوْعِدٍ	وَاجْتَمَعُوا فِيهِه لِمَيْقَاتِ
بِمَوْقِفٍ بَيْنَ يَدَيَّ أُسْقُفٍ	مُمْسِكٍ مَصْبَاحٍ وَمَنْسَاقِ

ومن الطبيعي أن تكون المرأة مصدر الجمال والفتنة ومصدر إلهام الشعراء والأدباء وإبداع الفنانين، فنجد الشاعر العربي قد افتتح أولى هواجسه الشعرية بالمرأة، وصوّر الحب ما يعتلج في قلبه من محبة واشتياق إزاء الحبيبة، فلا شك أن تشعر المرأة شعور الرجل وتحس إحساسه فكما أرادها أن تكون أنشودة وحيه، هكذا هي رغبة أيضاً أن يكون موحى خيالها.

ولأن العرب على فطرتهم وبحكم أعرافهم وشرف أخلاقهم أهل عفة وصيانة فإننا نتوقع أنه من الواجب على الشاعرة تماشياً مع التقاليد العربية أن تقف صامتة إزاء عواطفها أو قد تتظاهر الحبيبة بأنها لا تبالي بمن تحب لتوهم الوشاة والرقباء فتتحدث بحديث لا يفهموه وتلحن لهم بمعنى يفهمه الحبيب وحده وإشارة لا يعرفها إلا هو. إلا أن هذه الصورة اختلفت في المجتمع الأندلسي، فقد تمتعت المرأة في الأندلس - بحكم العادات الاجتماعية وطبيعة المجتمع الأندلسي - بهامش من الحرية فمارست عدداً من الأنشطة الاجتماعية والدينية والثقافية؛ مما جعلها أكثر تحراً من مثيلاتها في المشرق وسائر البلدان الإسلامية الأخرى^(١)، فقد نالت حظاً وافراً من التعليم، فنبت عدد كبير منهن في العلوم والآداب والفنون، وكانت المرأة الأندلسية تلتقي الرجال في ساحات الدرس، وفي السمر الأسري، وكانت تخرج لزيارة المساجد والأسواق والتنزه في الرياض والحدائق برفقة جواربها، ولم تكن النساء الأندلسيات حبيسات البيوت، بل شاركن الرجال

(١) هذا ما أكدته الأبحاث والدراسات التي تناولت الحديث عن المرأة الأندلسية، يُنظر:

- بيهم، محمد جميل، المرأة في الإسلام وفي الحضارة الغربية، تقديم جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ١٩٨٠ م، ص ٨٢.
- تاريخ الأدب العربي - عصر الأندلس: د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ١٩٨٩ م، ص ٥٢.
- عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت، ط ٧، ١٩٨٥ م، ص ١١٩، ١٢٠.
- النوش، حسين، التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩٢ م، ص ٣٣٢ - ٣٤٢.
- الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي: محمد سعيد الدغلي، منشورات دار أسامة، ط ١، ١٩٨٤ م، ص ٤١.

في مناحي الحياة المختلفة كالتجارة والصناعة اليدوية والزراعة^(١) ومع تلك الحرية التي تمتعت بها المرأة في الأندلس فقد حافظت على روح العفة التي تتسم بها المرأة عندما عبّرت عن مشاعرها، فقد عبرت حفصة بنت حمدون الحجازية عن شدة ألمها من فراق الحبيب الذي أوحشها بعده وباتت تنقلب على نار الشوق والوجد: [من مجزوء الكامل]^(٢)

يا وحشـــــتي لأحـــــبـــــتي
يا ليلـــــةٌ ودعـــــتهم

يا وحشـــــةٌ متناهيـــــةٌ
يا ليلـــــةٌ هي ما هي

والحياة عند أم العلا بنت يوسف الحجارية تفقد طعمها من غير الحبيب تقول: ^(٣) [من الوافر]

كُلُّ مَا يَصْدُرُ عَنْكُمْ حَسَنٌ
وَبَعَلِيَّكُمْ يُحَلَّى الزَّمَنُ
وَبِذِكْرَاكُمْ تَلِدُ الْأَدُنُ
فَهُوَ فِي نَيْلِ الْأُمَانِي يُعْبَنُ
مَنْ يَعِشْ دُونَكُمْ فِي عَمْرِهِ

كما ولد فراق الحبيب وبعده عن " الغسانية البجانية " في نفسها ألماً وحرناً، مما جعلها تعيش حالة بؤس وجزع فعبّرت عن معاناتها من الفراق، وتذكرت الأيام السعيدة التي سبقت رحيل محبوبها وتمنت أن تعود تلك الأيام ويعود معها فرحها وسرورها، وتساءلت إن كان حبيبها سيقبى مخلصاً لها في مشاعره كما كان قبل الفراق قالت: ^(٤) [من الطويل]

أَجْنَعُ أَنْ قَالُوا سَتَظَعُنُ أَظْعَانُ
وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ عِنْدَ رَحِيلِهِمْ
عَهْدَتِهِمُ وَالْعَيْشُ فِي ظِلِّ وَصْلِهِمْ
لِيَالِي سَعْدٍ لَا يَخَافُ عَلَى الْهَوَى
وَيَسْطُو بِنَاهُ هُوَ فَنَعْتَنُقُ الْمَنَى
أَلَا لَيْتَ شَعْرِي وَالْفِرَاقُ يَكُونُ هَلْ

(١) يُنظر: أبو حسين، محمد صبحي، صورة المرأة في الأدب الأندلسي - في عصر الطوائف والمرابطين: عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط ٢، ٢٠٠٥م، ص ٣٢.

(٢) نفح الطيب: ج ٦، ص ٧٢.

(٣) الأندلسي، ابن سعيد، المُغرب في حُلَى المغرب، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م، ج ٢، ص ٣٢.

(٤) الضبي، أحمد بن يحيى، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م، ص ٥٤٥

وكانت حمدونة بنت زياد المؤدّب إذا " قالت الغزل فإنها تصنع الحب وتصوغه في شعر رقيق الحواشي عذب الإيقاع في غير ما فحش ولا خلاعة، وإنما في نطاق من الأسلوب الرائق، والمعاني المحتشمة " (١) وذات يوم نغص عليها الوشاة سويغات هنائها مع حبيبها، وشتوا عليها حرباً كلامية من أحاديث الإفك والافتراء، فلجأت إلى البكاء والدموع والآهات لتدافع عن نفسها، وذلك لقلّة حُماها وأنصارها تقول: (٢) [من الطويل]

وَمَا هُمْ عِنْدِي وَعِنْدَكَ مِنْ ثَارِ	وَلَمَّا أَبَى الْوَاشُونَ إِلَّا فِرَاقَنَا
وَقُلَّ حُمَاتِي عِنْدَ ذَاكَ وَأَنْصَارِي	وَشَتُّوا عَلَى أَسْمَاعِنَا كُلِّ غَارَةٍ
وَمِنْ نَفْسِي بِالسَّيْفِ وَالسَّيْلِ وَالنَّارِ	عَزَوْهُمْ مِنْ مُقْلَتَيْكَ وَأَدْمُعِي

فالشاعرات الأندلسيات فرضن وجودهنّ على الساحة الأدبية وساهمن في إثراء الأدب الأندلسي بألوان طريفة، ولا غرابة في ذلك وخاصة أهنّ عشن " في مجتمع كاد كله أن يقول شعراً " (٣) ولم يكن لها ذلك إلا عندما توفرت لها الحرية في البيئة الأندلسية " التي لم ترتبط تقاليدها بأعماق وأثقال كتلك التي ارتبطت بها بيئة المشرق " (٤).

ومن ناحية أخرى فقد شغلت الجوّاري مكاناً واسعاً في المجتمع الأندلسي حتى قيل أن " المجتمع الأندلسي كانت تغلب عليه الجوّاري " (٥) ساعدت على كثرته كثرة الحروب والاضطرابات الدائمة بين المسلمين والنصارى وما نجم عنها من أسر، ووجود تلك التعددية في الأجناس في الأندلس، ومع هذه الكثرة كان لا بد من الامتزاج، فتزوج العرب من إسبانيات أو بربريات أو تسرّوا بهنّ، وقد كثر زواج ولاية الأندلس وأمرائهم العرب من الإسبانيات، ومن أولهم عبد العزيز بن موسى بن نصير (٦)، الذي تزوج من أرملة لودريق، وأغرم الخلفاء بجوّارٍ إسبانيات اتخذوهنّ أمهات أولاد وأحبّوهنّ كثيراً، فقد أغرم عبد الرحمن بن الحكم (٧) بالكثير منهنّ، ففي عهده استقدم بعض المغنيات المدينيات وحظين عنده

(١) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١١، ٢٠٠٥ م، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) نفع الطيب، تح: د. إحسان عباس، طبعة دار صادر، ج ٤، ص ٢٨٧.

(٣) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه: ص ١١٧.

(٤) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه: ص ١١٨.

(٥) ابن حزم، أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي، رسائل ابن حزم الأندلسي، تح: د. إحسان عباس، ج ١، ص ٦٧.

(٦) هو عبد العزيز بن موسى بن نصير اللخمي، بالولاء، أمير فاتح. ولاه أبوه إمارة الأندلس، كان شجاعاً حازماً، فاضلاً في أخلاقه وسيرته، قُتل سنة ٩٧. الأعلام للزركلي: ج ٤، ص ٢٨.

(٧) هو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الأموي، أبو المطرف: رابع ملوك بني أمية في الأندلس. توفي بقرطبة سنة ٢٣٨. الأعلام للزركلي: ج ٣، ص ٣٠٥.

(١)، وأكرمهم لا سيّما طروب (٢)، وقد بنى عبد الرحمن الناصر مدينته المشهورة لأنّ جاريته المفضّلة الزهراء اشتهدت أن يبني مدينة باسمها وتكون خاصّة لها، فبنى مدينة الزهراء ونقش صورتها على الباب (٣)، وقد أحبّ الحكم المستنصر جاريته وأمّ ولده صبح البشكنسيّة وكان لها أثر في وضع نهاية الحكم الأموي (٤)، وكان بعضهم على درجة كبيرة من الثقافة والعلوم منهم الغسانية البجانية الأدبية الشاعرة التي مدحت الملوك، وغاية المنى التي اشتهرت في بلاط المعتصم بن صمادح (٥) " ولم يقف الزواج أو التسريّ بالإسبانيات عند الولاة والأمراء في الأندلس بل تعداه إلى عامة العرب، وقد ذكر أبناؤهم منهم بالإضافة إلى أمهاتهم ما لم يكن في طبيعة العرب فقالوا: ابن الروميّة وابن القوطيّة " (٦).

وكان من الطبيعي - مع هذه المكانة والاهتمام بهنّ - أن يكثر ويشيع شعر الغزل بمؤلاء الجوّاري، وكدأب الملوك والأمراء في إظهار الخضوع للجوّاري في تغزّلهنّ، راح عزّ الدولة (٧) ييوح لنا بهوى هذا البدر الذي ملك قلبه وسلب لبّه، حتى أنه صار يغبط الدار التي حوته، والسلالة التي أنجبته، والأرض التي حملته، وأدنى عبد يلتقيه، يقول: [من المجتث]

(١) وهنّ قلم وفضل وعلم، وقد أنجبت له كلّ منهنّ مولوداً ذكراً فتمتعت بمركز أم ولد أو الأميرة الأم المرموقة، يُنظر: حضارة العرب في الأندلس: ليفي بروفنسال، ص ٥٧.

(٢) قيل إنه كان مولعاً بها كثيراً، وفي قصّته معها أنّه أغضبها فهجرته ولزمت مقصورتها، وأنه جهد يسترضيها ولم ترض، فأرسل بعض خصيانه يكرهونها على الخروج، لكنها أغلقت باب مجلسها في وجوههم، وآلت ألا تخرج إليهم طائعة، فاستأذنوه في كسر الباب عليها فنهاهم، وأمر بسد الباب عليها من الخارج بيدر الدراهم ففعلوه، وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضياً على أن لها جميع ما سدّ به الباب، فأجابت وفتحته وحازت المال. يُنظر: نفح الطيب، ج ١، ص ٣٤٩.

(٣) يُنظر: نفح الطيب، ج ١، ص ٥٢٣.

(٤) كان المنصور بن أبي عامر وكيلاً على أموالها، وزاد أمره في التّرفي معها إلى أن مات المستنصر، وكان هشام صغيراً له من العمر عشرة أعوام وأشهر، وعندما خافت الاضطراب، ضمن لها المنصور استقرار الملك لابنها على أن تمده بالأموال، فاستمال الجيش إليه حتى صار صاحب التدبير، والمتغلب على الأمور، وحجب هشاماً المؤيد لا يظهر ولا يُنقذ له أمراً، تلّغّب بالمنصور وولي خلافة الأندلس، ويُقال أنّ صبح يعد موت زوجها الحكم قد تأمرت على قتل عم ابنها المغيرة، خوفاً من أن يطمع في وراثة عرش أخيه. يُنظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب: عبد الواحد المراكشي، تح: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط ٧، ١٩٧٨ م، ص ٤٨.

(٥) يُنظر: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر - عصر ملوك الطوائف، ص ٤٥٠ - ٤٥١.

(٦) رحلة الأندلس: محمد ليبب البتوني، ط ١، بلا دار نشر، ولا تاريخ، ص ٢٧.

(٧) هو الواثق عز الدولة أبو محمد عبد الله بن المعتصم الذي خصّه بولاية عهده، ورشّحه للملك بعده، وآل أمره في دولة بني حمّاد، ويذكره المقرئ باسم الواثق عزّ الدولة أبي محمد عبد الله مرة، وباسم الواثق يحيى مرّة أخرى، متفقاً مع ابن سعيد ومن سبقه على أنه هو الذي فرّ إلى بجاية عملاً بوصية أبيه، ويؤكد ذلك بقول ابن اللبانة الذي اجتمع معه هناك، أما ابن الأثير فيذكره تحت عنوان " عزّ الدولة أبو مروان عبيد الله "، إلا أنه يختلف معهم - زيادة على اختلافه معهم في كنيته - في أنّ عزّ الدولة لم يغادر الأندلس وإنما لجأ إلى أحد المرابطين لذمة كانت بينهما، وأن الذي فرّ إلى بجاية هو أخوه معزّ الدولة. يُنظر ترجمته في: المغرب: ابن سعيد: ج ٢ ص ٢٠١، و نفح الطيب: ج ٣ ص ٣٦٧ و ٣٦٨، والحلة السيرة: ج ٢ ص ٨٨ و ٩٠، الذخيرة: ق ١ مج ٢ ص ٧٣٥، الحاشية: ١.

أهـوى قضيب لجـين	قد أطلع البدر فيه
إن كان موقي بلحظ	منه، فعيش يليه
يا ربِّ كم أتمنى	لقياه كم أشتهيه
ولا أرى منه شيئاً	سوى جفاء وتيه
طوي لدار حوثه	وأتمه وأبيه
بل ألف طوي لعبد	في موضع يلتقيه

كما عُرف عن المعتمد بن عباد تعلقه بجواريه، ويحكي عنه أنه "كانت له جارية اسمها جوهرة كان يحبها، فكتب إليها يسترضيها في عتاب جرى بينهما، فأجابته برقة لم تعونها باسمها، فقال ^(١): [من السريع]

لم تصف لي، وإلا فلـم	لم أر في عنوانها جـوهرة
درت بأي عاشقٍ لاسمها	فلـم تُردِّ للعَـيْظ أن تـذكره
قالت: إذا أبصره ثانياً	قبَّله، والله لا أبصره

من خلال هذه الأبيات يتبين مدى انسياق الأمير وراء شهواته، التي نزلت به من عرش سلطانه وعظيم جنباه إلى مستوى جارية تتمتع، وتفرض عليه سلطانها وتداري اسمها لتحرمه حتى من تقبيله.

كما أوكلت للجواري أعمال رعاية الأولاد وتأديبهم وتعليمهم، فذكر ابن حزم أن الجواري قمن بتربيته، وخدمته في طفولته وبداية شبابه، فشاهد الدنيا من خلالها، وتعرف على الحياة على أيديهن، وسقى من علمهن، فتعلم منهن مبادئ القراءة، والخط، وحفظ القرآن، ورواية الشعر. وقد ذكر لنا هذا كله حين قال: "هنّ علمني القرآن، ورويني كثيراً من الأشعار، ودريني في الخط" ^(٢).

فمن ذلك يتبين لنا أن الجواري أصبحن مكوناً أساسياً من مكونات المجتمع الأندلسي، "ونمت شخصية بعضهن حتى نازعن الحرائر منزلهن السامية داخل القصور وخارجها، وفرضن احترامهن" ^(٣) فحظين بقلوب الناس، وكان دور الإماء

(١) ابن عباد، المعتمد، ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية: ص ١٤.

(٢) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص ٥٠.

(٣) البيعة الأندلسية وأثرها في الشعر — عصر ملوك الطوائف، ص ٤٥٠.

في الأندلس أكثر سيطرة في الغزل نظراً لكثرتها " (١) ولم يقتصر دورهن على أعمال التنظيف والخدمة، بل تعداه إلى التعليم والتربية، كما كان لبعضهن سلطان سياسي وتأثير في الخلفاء والملوك.

أبرز مؤثرات ميل الشعراء في الغزل إلى العفاف

ولعل من أبرز التأثيرات المختلفة التي تجلت وأثرت في هذا الغزل هو ما يمكن أن نرده إلى الإسراف في اللهو والملذات وانتشار الفجور والابتعاد عن الدين الإسلامي بين أفراد المجتمع الأندلسي، مما هيأ لظهور ردة فعل من بعض أفراد هذا المجتمع، والعودة إلى السمو والطهر والصفاء، وإعادة استلهم بعض الأفكار الدينية الإسلامية كفكرة القضاء والقدر، والنظرة إلى الحب على أنه قضاء مبرم من الله لا يد للإنسان في رده، وفكرة العفو والغفران قال ابن زيدون: (٢) [من البسيط]

يا مُخْجَلِ الْعُصْنِ الْفَنِيَانِ إِنَّ خَطَرَا	وفاضِحِ الرَّشْلِ الْوَسْنَانِ إِنَّ تَظَرَا
يَفْدِيكَ مِنِّي مُحِبُّ شَأْنُهُ عَجَبٌ	مَا جِئْتَ بِالذَّنْبِ إِلَّا جَاءَ مُعْتَذِرَا
لَمْ يُنْجِنِي مِنْكَ مَا اسْتَشَعَرْتُ مِنْ حَذَرٍ	هِيَهَاتَ كَيْدُ الْهَوَى يَسْتَهْلِكُ الْحَذَرَا
مَا كَانَ حُبُّكَ إِلَّا فِتْنَةً قُدِرَتْ	هَلْ يَسْتَطِيعُ الْفَتَى أَنْ يَدْفَعَ الْقَدَرَا؟

ومحاولة كف النفس عن الوقوع بالمحرمات والتوبة إلى الله تعالى وتذكيرها بالعقاب الذي يترتب عليها عند وقوعها بالآثام، يقول ابن الحداد: (٣) [من الطويل]

تُطَالِبُنِي نَفْسِي بِمَا فِيهِ صَوُّهَا	فَأَعْصِي، وَيَسْطُو شَوْقُهَا فَأُطِيعُهَا
وَوَاللَّهِ مَا يُخَفِّى عَلَيَّ ضَلَالُهَا	وَلَكِنَّهَا تَهْوَى فَلَا أَسْتَطِيعُهَا

ويظهر هذا جلياً عند ابن عبد ربّه فنراه " بعد أن راج شعر الغزل والمجون في حياته، وانفضح أمره في أيام شبابه، أقلع عن صبوته وارتجع عن غفلته واثني عن المجون إلى صفاء التوبة، فمحصّ أشعاره بما يُنافيها، ونصل من قوادمها وخوافيها بأشعار في الزهد على أعاريضها وقوافيها، منها القطعة التي أولها: [من البسيط]

((هلا ابتكرت لبين أنت مُبتكر))

(١) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر - عصر ملوك الطوائف، ص ٤٥٠

(٢) ديوان ابن زيدون: ص ١٠١.

(٣) ديوان ابن الحداد: ٢٣٥.

مَحْصَهَا بِقَوْلِهِ:

يا راقِدَ العَيْنِ يَغْفُو حِينَ يَقْتَدِرُ ماذا الذي بَعْدَ شَيْبِ الرَّأْسِ تَنْتَظِرُ؟^(١)

وهو يدعو إلى المبادرة إلى العمل الصالح والتوبة النصوح، ويذكّر بحساب الله عز وجل حيث يقول: ^(٢) [من البسيط]

بَادِرْ إِلَى التَّوْبَةِ الْخُلُصَاءِ مُجْتَهِدًا والمَوْتُ وَيَحْكُ لَمْ يَمْدُدْ إِلَيْكَ يَدَا
وَارْتُئِبْ مِنَ اللَّهِ وَعَدًّا لَيْسَ يُخْلِفُهُ لَا بُدَّ لِلَّهِ مِنْ إِنْجَازِ مَا وَعَدَا

وخلاصة القول: يتبن لنا أن تجربة الغزل العذري تأثرت بعوامل وظروف عدة جعلتها تختلف عن تجربة الغزل العذري المشرقي، فقد أسهمت الظروف الاجتماعية التي نتجت عن التفاعل بين مكونات المجتمع الأندلسي وامتزاج الثقافات المختلفة في تلك البيئة الأندلسية إذ " أدى انصهار العناصر الأصلية المختلفة في وهج الأحداث السياسية إلى تكوين جنس أندلسي تدريجياً يحاول أن يحقق ذاته بإعطاء كل شيء يتناوله طابعاً قومياً واضحاً "^(٣) ومتميزاً بفتغيرت مقاييس الجمال فيها متأثرة بالبيئة والطبيعة المحيطة بها. كما كان لوضع المرأة في المجتمع الأندلسي وتمتعها بشخصية متحررة دور في تطوير وإدخال عناصر جديدة على عناصر الحب العذري.

ثانياً: البيئة السياسية:

عاش الإنسان العربي في بلاد الأندلس حالة من الاضطراب رافقته معظم فترات وجوده، من لحظة وصوله إلى بلاد الأندلس فاتحاً، مروراً بفترات الاضطراب والفتن الداخلية بالإضافة إلى ما تعرضت إليه من غزوات وأخطار، فقد كان على عاتق الفاتحين في أوائل دولتهم أن يوطّدوا دعائم حكمهم في بيئة غريبة، ولذا كان العرب في حرب مستمرة مع الإسمان وفي حروب أخرى بينهم للقضاء على الخلافات الداخلية بين القيسية واليمينية وبين العرب والبربر، كل هذه الصعوبات كان من شأنها أن تُضعف من قوة العرب في ذلك الحين، ولكن الأمر الذي ساعدهم على التغلب على هذه الصعوبات خلال فترة الحكم الأموي هو قوة الخلفاء وحزمهم، وطول الفترة التي قدّر الله أن يقضيها الخليفة على

(١) ابن عبد ربه، ديوان ابن عبد ربّه الأندلسي مع دراسة لحياته وشعره، تح: د. محمد ألتونجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١،

١٩٩٣ م، مقدمة الديوان ص ٢٧.

(٢) ديوان ابن عبد ربه الأندلسي ص ٦٨.

(٣) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، هنري بيريس، تر: د. الطاهر مكي، ص ١١.

كرسيه قبل موته، وكثرة غزواتهم على النصارى ^(١) " فلم يخل عصر تقريباً من ثورة يقوم بها هذا الإقليم أو ذاك، أو من حركة انفصال تحاوها هذه المنطقة أو تلك، أو من روح تمرد يديها هؤلاء أو أولئك، وكان من نتائج ذلك أن كثر إرسال الجيوش وقيادة الجند، إن لم يكن لإخضاع ثورة إقليم مسلم، فلرد هجمة جيش مسيحي، وإن لم يكن لسد بعض الثغور، فلتأمين بعض الحدود " ^(٢) وبتأثير تلك الظروف حدثت حركات انتقال كبيرة في المجتمع الأندلسي شكلت ظاهرة باتت تعرف " بظاهرة الجلاء " ^(٣)، فلم تعد حركة الانتقال قاصرة على الرحلة العلمية أو التجارية أو على النجعة في سبيل الارتزاق، بل أصيب المجتمع بتموجات متحركة كانت أحياناً تخل في توازنه، وتترك فيه آثاراً نفسية عميقة. وقد بدأ هذا الجلاء بحادثة الفتنة البربرية أولاً وهجرة كثير من أهل قرطبة فراراً بأرواحهم في نواحي الأندلس المختلفة، ثم تزايدت حركة الجلاء إثر سقوط بعض المدن في الحروب الداخلية وكان على أشد أحواله عندما تسقط مدينة في يد العدو الأجنبي، وكان من أسباب هذا الجلاء أيضاً طلب الرزق أو الهرب من الضرائب والظلم أو الصراع العنصري ^(٤). لهذا السبب تراهم يتشوقون إلى المشرق - في العصور الأولى لوجودهم في الأندلس - وينظرون إليه بعين الحنين هرباً من هذا الاضطراب ونزوعاً نحو الاستقرار، ولذا ظهر شعر الاغتراب والحنين عند بعض الشعراء وحتى الخلفاء

(١) عاش عبد الرحمن الناصر خمسين سنة، ذكر أنه لم يصف له العيش فيها سوى أربعة عشر يوماً، وكان كثير الجهاد. أما المنصور بن أبي عامر الحاجب فقد زادت غزواته على الخمسين وفتح مدناً كثيرة، وكان شوكة في جنب النصارى يبدؤهم بالغزو قبل أن يبدؤوه بالهجوم، يُنظر نفح الطيب، ج ١، ص ٣٥٣، ٥٩٥.

(٢) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص ٥٠.

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، د: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط ١، ١٩٩٢ م، ص ٣٢.

(٤) يُنظر: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص ٣٢ وما بعدها إلى ص ٥٥.

منهم مثل عبد الرحمن الداخل ^(١) وغيره من الأمراء ^(٢) وعند بعض الجواري ممن ابتاعهنَّ من العراق سادة الأندلس مثل قمر جارية اللخمي ^(٣).

كما سببت تلك الظروف نوعاً من القلق في المجتمع الأندلسي وتناقضاً صارخاً بين حياة الخشونة والحرب والجهاد، وحياة النعومة واللذة والمتعة. فكان في كثير من عهوده مجتمعاً قليل الاستقرار كثير الهزات، انعكس هذا على نفسية الشخصية الأندلسية التي " سعت إلى ما يشعر بالأمن أو إلى ما يسكن بعض هذا القلق " ^(٤)، فالمتأمل في شعر الغزل الأندلسي يجد نغمة أنين وحنين عند معظم الشعراء إلى مرابع الصبا التي تركوها أو أبعادوا عنها عنوة، وإلى أيام مضت عاشوا فيها لحظات سعادة يتمنون عودتها بعد عودتهم إلى ديارهم، فهذا ابن زيدون يذكر ولادة خلال إقامته

(١) من نظم عبد الرحمن الداخل ما كتبه إلى أخته بالشام:

أُقِرُّ مِنْ بَعْضِي السَّلامَ لِبَعْضِي	أُيْهِهَا الرَّاكِبُ المَيمُمُ أَرْضِي
وَفُؤَادِي وَمَالِكِيهِ بِأَرْضِي	إِنَّ جِسْمِي كَمَا تَرَاهُ بِأَرْضِي
وَطَوَى البَيْنُ عَن جَفَوْنِي غَمَضِي	قَدَّرَ البَيْنُ بَيْنَنَا فَافْتَرَقَنَا
فَعَسَى بِاجْتِمَاعِنَا سَوْفَ يَقْضِي	قَدْ قَضَى الدَّهْرُ بِالفِرَاقِ عَلَيْنَا

يُنظر: نفح الطيب، ج ٣، ص ٢٨.

(٢) ومنهم عبد الملك بن عمرو بن مروان بن الحكم الأموي، فرَّ من الشام وولاه عبد الرحمن الداخل إشبيلية، ومن شعره لمَّا نظر نخلة منفردة بإشبيلية:

بَا نَخْلُ أَنْتِ فَرِيدَةٌ مِثْلِي	فِي الْأَرْضِ نَائِيَةٌ عَنِ الْأَهْلِ
تَبْكِي وَهَلْ تَبْكِي مَكْمَمَةٌ	عَجْمَاءُ لَمْ تُجَبَّلْ عَلَى جَبْلِي
وَلَوْ أَهَّأَا عَقَلْتُ إِذَا لَبَكْتُ	مَاءَ الْفَرَاتِ وَمَنِبَتِ النَّخْلِ
لَكُنَّهَا حَرَمْتُ وَأَخْرَجَنِي	بَغْضِي بَنِي الْعَبَّاسِ عَنْ أَهْلِي

يُنظر: نفح الطيب، ج ٣، ص ٥٨.

(٣) قالت قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي صاحب إشبيلية:

أَهَاءَ عَلَى بَغْدَادِهَا وَعِرَاقِهَا	وِطْبَائِهَا وَالسَّحَرِ فِي أَحْدَاقِهَا
وَمَجَالِهَا عِنْدَ الْفَرَاتِ بِأَوْجَةٍ	تَبْدُو أَهْلُهَا عَلَى أَطَوَاقِهَا
مَتَبَخَّرَاتٍ فِي التَّعْصِيمِ كَأَنَّهَا	خُلِقَ الْهَوَى الْعَذْرَى مِنْ أَخْلَاقِهَا
نَفْسِي الْفِدَاءُ لَهَا فَأَيِّ مُحَاسِنٍ	فِي الدَّهْرِ تُشْرِقُ مِنْ سَنَا إِشْرَاقِهَا

يُنظر: نفح الطيب، ج ٣، ص ١٤٠.

(٤) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين: ص ٥٠.

في مدينة الزهراء ويتشوق إليها وإلى اللحظات السعيدة التي عاشها معها في ربوع قرطبة بنفس متعبة علية شاركته الطبيعة أحزانه، ولكنه رغم البعد ورغم الفراق يبقى وفيًا لها و يبقى متمسكًا بحبها، يقول: ^(١) [من البسيط]

إِنِّي ذَكَرْتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَاتَا	وَالْأَفُقُ طَلَقَ وَمَرَأَى الْأَرْضِ قَدِ رَاقَا
وَلِلنَّسِيمِ اعْتِلَالٌ فِي أَصَائِلِهِ	كَأَنَّهُ رَقٌّ لِي فَاعْتَلَّ إِشْفَاقَا
يَوْمَ كَأَيَّامٍ لَدَاتٍ لَنَا انْصَرَمَتْ	بَتْنَا لَهَا حِينَ نَامَ الدَّهْرُ سُرَّاقَا
نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهْرِ	جَالِ النَّدَى فِيهِ حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا
لَا سَكَنَ اللَّهُ قَلْبًا عَقَّ ذَكَرُكُمْ	فَلَمْ يَطِرْ بِجَنَاحِ الشَّقْوَى خَفَّاقَا
كَانَ التَّجَارِي بِمَحْضِ الْوُدِّ مِنْ زَمَنِ	مِيدَانِ أَنْسٍ جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلَاقَا
فَالآنَ أَحْمَدَ مَا كُنَّا لَعَهْدِكُمْ	سَلَوْنُكُمْ وَبَقَيْنَا نَحْنُ عُشَّاقَا

ويشكو ابن عبد ربه هجر محبوبته وابتعاده عنها مرغماً ويحن لتلك الأيام السعيدة التي مضت وإلى ديار محبوبته، يقول: ^(٢) [من الخفيف]

إِنَّ فِي الْأَحْدَاثِ مَقْصُورَةً	وَجْهَهَا يَهْتَكُ سِتْرَ الظَّلَامِ
تَحْسِبُ الْهَجَرَ خَلَالًا لَهَا	وَتَرَى الْوَصَلَ عَلَيْهَا حَرَامَ
مَا تَأْتِيكَ لِدَارٍ خَلَتْ	وَلِشَعْبٍ شَتَّ بَعْدَ التَّمَامِ

وكانت حروب المعتمد بن عباد الكثيرة سبباً في فراقه عن محبوبته، فنراه يتألم من بُعد محبوبته، فيذرف عليها دموع الشوق، ويمنعه انشغاله بحروبه من زيارتها، ومع بعدها عنه واتساع المسافة بينهما إلا أنها دائمة الحضور معه، وهو مخلص لها في حبه مهما ابتعد عنها، فيقول: ^(٣) [من الطويل]

كَبَيْتُ وَعِنْدِي مِنْ فِرَاقِكَ مَا عِنْدِي	وَفِي كَبْدِي مَا فِيهِ مِنْ لَوْعَةِ الْوَجْدِ
وَمَا خَطَّتِ الْأَقْلَامُ إِلَّا وَأَدْمَعِي	تَحْطُّ سُطُورَ الشَّقْوَى فِي صَفْحَةِ الْخَدِّ
وَلَوْ لَا طِلَابُ الْمَجْدِ زُرْتُكَ طِيَّه	عَمِيداً، كَمَا زَارَ النَّدَى وَرَقَ الْوَرْدِ
أَغَائِبَةُ عَيْنِي وَحَاضِرَةُ مَعِي	لَنْ غَبَتْ عَنْ عَيْنِي، فَإِنَّكَ فِي كَبْدِي

(١) ديوان ابن زيدون: ص ١٩٤ - ١٩٥.

(٢) ديوان ابن عبد ربه الأندلسي، ص ١٤٧.

(٣) ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، ص ٦.

أقيمي على العهد الذي كان بيننا فإني على ما تعلمين من العهد

وذكر منظرو الأدب أن حالة الحب تحتاج إلى الاستقرار والتدرج في الحب. فابن داوود يذكر في باب "من قدم هواه قوي أساه" ^(١) " أن من تدرج في المحبة تدرجاً طبيعياً من الأدنى إلى الأعلى حتى ينتهي إلى بعض الأحوال الصعاب، كان زوال المحبة - إن زالت - بطيئاً، أما الذي لا يتدرج في الحب تدرجاً طبيعياً، فإن محبته معرضة للزوال حتى وإن وصل إلى مرحلة متقدمة من مراحل العشق " ^(٢) هذا التدرج والاستقرار في الحب لم يتحقق في ظل هذه الظروف في كثير من الأحيان. لذلك لم يكن حب معظم هؤلاء الشعراء العذريين في الأندلس وفقاً على محبوبة واحدة، بل تعدد بين الزوجات والجواري والسراير.

وتبعاً لذلك فقد غلبت على معظم الشعر الغزلي الأندلسي صفة المقطوعات الشعرية القصيرة، التي تعبير عن حالة شعورية عرضية، " وإن كانت بعض المقطوعات لا يمكن الجزم بعدد أبياتها والبت بوصولها كاملة سالمة من غير حذف أو اختصار وهي ما وصلنا عن طريق كتب التراجم والمختارات، لأنّ من طبيعة هذه المؤلفات اختطاف أبيات قليلة كنموذج من قصيدة قد تكون طويلة، ثم ما يصاحب ذلك من تحكم ذوق المؤلف ومزاجه واتجاهه الفكري والسلوكي في اختيار تلك النماذج " ^(٣) لكن ومع ذلك يمكن أن نصف شعر الغزل العذري في الأندلس بشكل عام بالمقطوعات الشعرية.

أسباب ازدهار الحركة الأدبية في الأندلس:

وكان لانقسام الأندلس إلى دويلات وطوائف ^(٤) واستقلال كل إقليم أو كل مدينة بالحكم أثرٌ بالغٌ لازدهار الحركة الأدبية في الأندلس في ذلك العصر بسبب جملة من العوامل أهمها " التنافس بين أمراء الطوائف في العلوم والآداب، وحاجة هذه الممالك إلى الشعراء الذين يحفظون إنجازاتها ويدافعون عنها، فضلاً عن تمتع بعض أفراد هذه الأسر الحاكمة

(١) الزهرة: ٤٣٦/١.

(٢) الزهرة ٤٣٦ / ١ - ٤٣٧.

(٣) السعيد، د. محمد مجيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥ م، ص ١٥٥.

(٤) حيث زاد عددها عن ثمان وعشرين مملكة، راجع كتاب: جرار، صلاح، قراءات في الشعر الأندلسي، دار المسيرة، عمان، ط ٢، ٢٠٠٩ م، ص ٣١.

بالفصاحة والبلاغة والأدب، وحبهم الشعر والأدب ورعايتهم للأدباء والشعراء^(١) بلغ التنافس بينهم أن " تقسموا ألقاب الخلافة فمنهم من تسمى بالمأمون، وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد والموفق والمتوكل إلى غير ذلك من الألقاب " ^(٢) وظهرت طبقة من ملوك هذه الدويلات وأمرائها طرقت باب الشعر " كما هو شأن بني عبّاد في إشبيلية وبني الأفطس في بطليوس والعامريين في دانية والجزر الشرقية " ^(٣) أنشدت تلك الطبقة الشعر في الأغراض التي قال فيها عامة الشعراء، كالوصف والخمر والهجاء والزهد والاستعطاف والمراسلات، " وأتى الغزل على قمة شعر الملوك، وظفر بكثير من عنايتهم، واستطاعت فتيات الأندلس أن تستهوي أمراءها " ^(٤)، اتصف غزل هؤلاء الملوك والأمراء بالصدق والعفة والترفع عن الابتذال لأنه يصدر عنهم عن تجربة حب فكان الغزل " عندهم متاعاً ولهواً وظرفاً، ولم يكن صناعةً ومهارةً وتكسباً كما كان عند بعض الشعراء " ^(٥) وعكسوا في شعرهم بعضاً من طباعهم وصفاتهم واعتزازهم بفروسياتهم وبشخصيتهم الشجاعة. فمن شعر المعتمد الرقيق متغزلاً في زوجته اعتماد الرميكية قوله: ^(٦) [من الطويل]

تظنُّ بنا أمَّ الربيع سامةً	ألا غفر الرحمن ذنباً ثواقفه
أأهجرُ ظبياً في ضُلوعي كناسه	وبدرٍ تمامٍ في جُفوني مطالعه
وروضةً حسناً اجتنيهاً وبارداً	من الظلم لم تُحظر عليّ شرائعه
إذا عديمٌ كَفِّي نوالاً تُقيضُه	عليّ عتفيها أو عُدوا تُقارعه

الحب والعنف في شخصية الملوك:

وتطالعنا في شعر الملوك إشكالية المواقفة والجمع بين النقيضين: (الحب والعنف) بين الحب ومشاعره الرقيقة وبين ما تفرضه حياة الملوك التي تتصف بالعنف والقسوة لخوضهم المعارك، إلا أن هذه التناقضات وصلت عند المعتضد بن عباد إلى درجة بالغة، فقد كانت لديه حديقة في قصره وكانت " وراء هذه الحديقة المائلة قلوب البشر ذعراً، مباحةً بخزانة

(١) راجع تلك العوامل في كتاب: قراءات في الشعر الأندلسي، ص ٣١.

(٢) عبر عن ذلك أبو الحسن بن رشيق في قوله:

مما يرهـديني في أرض أنـدلس	سماعٌ مقتدرٍ فيها ومعتضد
ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها	كالهـرٍ يحكي انتفاخاً صولة الأسد

يُنظر: المعجب: عبد الواحد المراكشي، ص ١٠٥.

(٣) قراءات في الشعر الأندلسي، ص ٣١ - ٣٢.

(٤) شليبي، سعد إسماعيل، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر - عصر ملوك الطوائف، دار نخضة مصر للطبع والنشر، ص ٤٠٥.

(٥) يُنظر البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر - عصر ملوك الطوائف، ص ٤٠٥.

(٦) ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، جمعه وحققه: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، وزارة المعارف العمومية، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩٥١، ص ٢٠.

بلوى، أكرم لديه من خزانة جواهره، مكنونة جوف قصره، أودعها هام الملوك الذين أبادهم بسيفه، منها رأس محمد بن عبد الله البرزيلي شهاب الفتنة، ورؤوس الحجاب ابن خزرون وابن نوح وغيرهم الذين قرن رؤوسهم برأس إمامهم الخليفة يحيى بن علي بن حمود، سابقهم إلى تلك الرفعة، فخص رؤوسهم بالصن بعد إزالة جسومهم الممزقة، وبالع في تطييبها وتنظيفها للثواء لا لكرامة، وأودعها المصاون الحافظة لها، فبقيت عنده ثاوية تجيب سائلها اعتباراً^(١) فهذا الرجل يحمل بين جنبه هذا الحقد المكين ولهذه الدرجة، نجده في شقه الآخر مفعماً بالمشاعر واللفظ والحب الذي يملكه ويصير به مأموراً بعدما تعلم ألا يكون إلا أمراً فينساق في هوى محبوبته، وتأخذ الغيرة عليها فيقول: ^(٢) [من الطويل]

يجور على قلبي هوى ويجير
أغار عليه من لحاظي صيانة
وأكرمه، إن المحب غيور
لعمرك في جلى الأمور وقور

ونراه يتعذب من سعي الحب ويتلوى ويتحرق من شدة الوجد ويستعطف محبوبته بدموعه، لكي تجود عليه وتستجيب إليه يقول: ^(٣) [من الطويل]

رعى الله من يصلى فؤادي بحبه
غزالية العينين، شمسية السنا
سعيراً، وعيني منه في جنة الخلد
كثيبيبة الردفين، غصنيبة القدر
شكوت إليها حبها بمدامعي
وأعلمتها ما قد لقيت من الوجد

إن هذه الإشكالية التي جمعت بين التقيضين " الحب والعنف " تعتبر من محصلات البيئة الأندلسية المضطربة التي جمعت بين المتناقضات والأضداد، فالفت بينهما يمثل ما آلفت بين التلاحم والتنافر في المجتمع، ومن هذه الإشكالية نستنبط أيضاً خاصية أساسية لشعر هؤلاء الشعراء المتمثلة في العاطفة المتوقدة لدى هؤلاء الملوك والأمراء الذين عبروا بصدق عن معاناتهم وعن مشاعرهم بمقطوعات غزلية مشحونة بالعاطفة، وليس هذا فحسب، بل عبروا في معظم ما قالوه في غرض الغزل عن خضوعهم المبالغ فيه للحبيب، وقد رأينا ذلك عند المعتضد، والأمر نفسه نجده عند ابنه المعتمد بن عباد الذي يشكو إلى محبوبته صباية، متمنياً تعجيل اللقاء، حيث قال: ^(٤) [من السريع]

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، تح: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧ م، ق ٢، مج ١، ص: ٢٧ - ٢٨.

(٢) القضاءي، ابن الأبار، الحلة السيرة، تح: د. حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط ٢ ١٩٨٥ م، ج ٢، ص ٤٧.

(٣) الحلة السيرة، ج ٢، ص ٤٧ - ٤٨.

(٤) ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية ص ٢٤.

من عاشقٍ يشكو صَبَاباته إلى مُحِبٍّ هائمٍ مثله
 كلاًهما صَبُّ إلى إلفه حرَّانٌ، ظمآنٌ إلى وصله
 يا ربُّ، عَجَلْ جمعَ هذا بدا وقَرِّبِ الشَّكْلَ إلى شَكْلِهِ

فتناقضات الحياة السياسية بدت واضحة في نتاج الأدباء والشعراء، ويمكن تعليل ذلك بأن الشاعر " عبر عن حالته النفسية وشعوره ومعاناته العاطفية دون تكلف أو تزئيد، لأن المقطوعة الغزلية حصيلة تجربة من الشوق والوجد، تدفقت المشاعر في ضمير الشاعر وتزاحمت الخواطر في مخيلته فترجمها إلى مقطوعة شعرية أطفأت من جذوة نفسه المتقدة وحدّت من وطأها ونقّست من حشرجتها " ^(١) وحاولت التخفيف من حدة تلك التناقضات.

ثالثاً: البيئة الطبيعية

امتازت الأندلس بجمال طبيعتها فتنوعت تضاريسها ما بين الهضاب والسهول الخصبة والجبال، كما عُرفت بكثرة أنهارها واعتدال مناخها وكثرة أشجارها ومحاصيلها، نقل المقرئ عن الشيخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي في وصفها حين قال عنها: " بلد الأندلس هو آخر الإقليم الرابع إلى المغرب، وهو عند الحكماء بلد كريم البقعة، طيب التربة، خصب الجنب، منبجس بالأنهار الغزار والعيون العذاب، قليل الهوام ذوات السُموم، معتدل الهواء والجوّ والنسيم، ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال، وسيطة من الحال، لا يتولد في أحدها قُضْلٌ يتولّد منه فيما يتلوه انتقاص، تتصل فواكهه أكثر الأزمنة وتدوم متلاحقة غير مفقودة " ^(٢). ولم يكتف أهلها بهذا القسط من الجمال الطبيعي بل عملت يد الإنسان في التنظيم والتنسيق، وتسابق الأمراء والخلفاء في هذا المضمار، فأقاموا الجسور وشيدوا القصور وبنوا المدن وخططوا الرياض والبساتين وغرسوا بها الأشجار والأزهار والرياحين، وأسالوا مياه الأنهار والجداول، وأقاموا البرك الجميلة والبحيرات الواسعة كما فعل عبد الرحمن الداخل عندما بنى قصر الرصافة ^(٣)، فابن الخطيب يشبّه كثافة البساتين والرياض التي أحاطت بمدينة غرناطة بالعذار الذي أضفى الجمال على الوجه الجميل حيث قال: ^(٤) [من الكامل]

بلد يحفُّ به الرياضُ كأنّه وجهٌ جميل والرياض عذاره
 وكأتمّا واديّه معصمٌ غادة ومن الجسور المُحكّمات سواره

(١) يُنظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: ص ١٥٥.

(٢) نفح الطيب، ج ١، ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٣) يُنظر: نفح الطيب: ج ١، ص ٤٦٦ - ٤٦٧.

(٤) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٣ م، المجلد الأول، ص ١١٥.

فألقت الطبيعة الأندلسية الخلافة ظلالها وأثّرت بشكل بالغ وواضح في صقل مواهب الشعراء، تلك الطبيعة "المقسّمة المتباينة، كان لها أثر حميد في نفوس الناس وطباعهم، ثم في فنونهم وآدابهم ذلك أن الأندلسيين عاشوا أكثر ما عاشوا في تلك السهول الخصبة ذات الجمال الطبيعي الفاتن، وقد انعكس هذا على الناس خصوصية في خيالهم، وجمالاً في طباعهم، ورقة في أحاسيسهم، وأخرج منهم أناساً يغلب عليهم طابع المحبين للجمال مشاهدة وتمثلاً، ثم محاكاةً وتصويراً".^(١) والأديب صاحب موهبة فنية لا تقف جامدة أمام الطبيعة، متحجرة إزاء مفاتها ومجاليها، فلا بد أن يستجيب إلى مؤثراتها، بل يتحد معها اتحاداً قوياً فيتأثر بها، ويخلع عليها من أحاسيسه ووجدانه حتى يصبح هو والصورة التي يرسمها أو الطبيعة التي يتأملها شيئاً واحداً^(٢) لذلك انعكست الطبيعة في أدبهم وشعرهم، وتلون شعرهم الغزلي بألوان الطبيعة الأندلسية الخلافة أيضاً، وسرى نسغها في عناصر تصوير جمال المحبوبة فامتزجت عاطفة الشاعر بالطبيعة، "ولعل أبرز ما يتجلى هذا الاندماج العاطفي بالطبيعة في شعر ابن زيدون، فقد أفاض في وصف مشاهد الطبيعة وبرع في تصويرها، فضلاً عن أنه أضفى عليها من روحه وأسبغ عليها من عاطفته ولواعج نفسه ما زادها بماء وحياة"^(٣) ويظهر ذلك جلياً في قصيدته النونية والتي مطلعها: ^(٤) [من البسيط]

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تحافينا

وتندمج في شعره الطبيعة إلى درجة يصعب فيها التمييز - في أحيان كثيرة - بين ملامح المرأة وبين مشاهد الطبيعة ومن ذلك قوله: ^(٥) [من الطويل]

ورامشة يشفي العليل نسيئها أشار بها نخوي بنان منعم
سرت نضرة من عهدا في غصونها إذا هو أهدى الياسمين بكفه
له خلّق عذب وخلق محسن وظرف كعرف الطيب أو نشوة الخمر
يعلل نفسي من حديث تكدّه كمثّل المني والوصل في غقب الهجر

(١) الأذّب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة د أحمد هيكّل دار المعارف ط ١٣ ص ٥١

(٢) يُنظر: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر - عصر ملوك الطوائف، ص ١٠ - ١١.

(٣) الدقاق، عمر، ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٦ م، ص ١٨٣.

(٤) ديوان ابن زيدون، شرح: يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٦ م، ص ٢٩٨.

(٥) ديوان ابن زيدون، ص ١٠٢.

وشكل مشهد الطبيعة إطاراً عاماً لقصائد ابن خفاجة الغزلية فتتداخل عنده أيضاً أوصاف الطبيعة بأوصاف الحبيب في غزلياته، فلا ندري أبتغزل الشاعر أم يصف، وكل ذلك بفعل استحواذ الطبيعة بسحرها وجمالها على خياله ورؤاه، فمن ذلك قوله: ^(١) [مجزوء الكامل]

يا رُبَّ لَيْلٍ بُلُّهُ	وكأَنَّهُ مِنْ وَحْفٍ شَعْرُكَ
تَنْهَلُ مُزْنَئُهُ دَمْعِي	فِيهِ وَيَنْدَى نَوْرُ ذِكْرِكَ
أَتَبَعْتُ فِيهِ وَقَدْ بَكِيَ	ثُ عَقِيقَ حَدِّكَ دُرٌّ تَغْرِكَ
وَشَرَقْتُ فِيكَ بِعَبْرَةٍ	قَدْ وَرَدَتْهَا نَارُ هَجْرِكَ
فَكَأَنَّما يَنْفُضُ عَنْ	حَبِّ لَهَا رُتَانُ صَدْرِكَ
وَلِرُبِّ لَيْلٍ قَدْ صَدَعَا	ثُ ظَلَامُهُ بِجَبِينِ بَدْرِكَ
وَلَهُوْثٍ فِيهِ بِدُرَّةٍ	مَكْنُونَةٍ فِي حُوقِ خَدْرِكَ
تَنْدَى شَقَائِقُ وَجَنَّتِي	كَ بِهِ وَتَنْفُخُ رِيحُ نَشْرِكَ
وَقَدْ اسْتَدَارَ بَصَافَحَتِي	سُوسَانُ جِيدِكَ طَلُّ دُرِّكَ
حَيْثُ الْحَبَابَةُ دَمْعَةٌ	تَجْرِي بِوَجْنَةِ كَاسِ حَمْرِكَ
وَتَهْمُزُ مِنْكَ فَتَنْثَنِي	بِقَضِيْبٍ قَدِّكَ رِيحُ سُكْرِكَ
وَتُعْجِبُ مِنْ رَجَاحِ رِد	فِيكَ مَوْجَةٌ فِي شَطِّ خَصْرِكَ

وكما أنَّ للزهر كثرته في مجتمعات الأندلس ومنتزهاته، كان له وجوده في أقوال الشعراء الأندلسيين " وكان له إلهامه عندهم فهو من ضرورات الحياة، لا من كمالياتها. فإن أرادوا تعاطي الراح فلم يكن ذلك يجري في الحان، ولكنهم كانوا يذهبون لارتشافها في أحضان الطبيعة يراقبون النهر ويفترشون الزهر ويستمتعون بصفاء الجو وبمناظر وروائح مختلف أنواع الأزهار^(٢)، كقول ابن زيدون^(٣): [من الطويل]

ويوم لدى النبتى في شاطئ النهر	تدار علينا الراح في فتية زهر
وليس لنا فرش سوى يانع الزهر	يدور بها عذب اللمى أهيف الخصر

(١) ابن خفاجة، ديوان ابن خفاجة، تح: عبد الله سنده، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٦ م، ص ١٣١ - ١٣٢.

(٢) يُنظر: الدغلي، محمد سعيد، الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي، دار أسامة، ط ١، ١٩٨٤ م، ص ٨٤.

(٣) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون، تحقيق حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠: ص ٤٧٦-٤٧٧.

بفيه من الثغر الشنيب نظام

وَيَوْمَ بِجُوفِي الرِّصَافَةَ مَبْهَجَ	مَرَرْنَا بِرُوضِ الْأَفْحَوَانِ الْمَدْبُجِّ
وَقَابِلْنَا فِيهِ نَسِيمَ الْبِنْفَسَجِ	وَلَا حَ لَنَا وَرْدَ كَخْدٍ مَضْرَجِ

نراه أمام النور وهو إمام



رابعاً: البيئة الثقافية والحضارية:

لقد جلب العرب معهم حضارتهم المزدهرة، وشكلوا حضارة عريقة في هذا الصقع، اختلفت عن الحضارة العربية التي نشأت وتطورت في بلاد المشرق، فالعرب في بلاد المشرق اطلعوا على ثقافات جديدة في البلدان التي فتحوها؛ كالثقافة اليونانية والهندية والفارسية عن طريق الترجمة والاختلاط بالأجناس الأخرى، وقد هضموا هذه الحضارات واندجت مع تكوين العرب القبلي ومع موروثهم الثقافي والديني وتفاعلت معه، فظهرت المؤلفات في جميع المجالات العلمية والأدبية والفلسفية والدينية، وكان لها إسهام كبير في بناء الحضارة العربية المتميزة والمزدهرة، أما في المغرب فقد " ازدهرت حضارة العرب في إسبانيا، وبلغت أوجها رغم أنهم لم يجدوا فيها شيئاً من الفكر والثقافة كما وجدوا في البلدان الأخرى التي فتحوها، مثل مصر وسوريا والعراق وفارس " (١). " فالحضارة الأندلسية التي نشأت كانت أجمل وأعظم من أن تُقارن بغيرها، فلم تكن قائمة على أساس فارسي أو إغريقي، لقد كانت عربية صرفة أكثر من الحضارة العربية في أي مكان آخر " (٢) نشأت تلك الحضارة وازدهرت بجهود علمائها وتشجيع حكامها وأمرائها على العلم وحرصهم على تحصيل العلوم، وساهمت عدة عوامل في ازدهار الحياة الثقافية، وفي طليعة هذه العوامل هجرة الأندلسيين للأخذ من علماء المشرق، وهجرة بعض علماء المشاركة إلى الأندلس، ووصول الكتب المشرقية على مر العصور إلى الأندلس. وقد تأزرت هذه العوامل جميعاً ووجدت في حرص معظم الحكام الأندلسيين على تطوير الحياة الثقافية عاملاً قوياً في ازدهار الحركة العلمية والأدبية في الأندلس. حيث بلغت الأندلس ذروة المجد السياسي والحضاري والثقافي في القرن الرابع الهجري على يد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وابنه الحكم المستنصر (٣) (٣٥٠ - ٣٦٦) والحاجب المنصور بن أبي عامر (٣٩٢ -) .

وقد انشغل الرواة والأدباء والمؤرخون بتتبع الظروف والأحداث المتسارعة والمضطربة من إنشاء وتثبيت الحكم في بداية الوجود العربي في الأندلس، إلى أطماع ملوك الفرنجة في استرداد حكمهم وما جرّ من حروب خارجية معهم، إضافة التي الفتى الداخلية التي قامت بين الممالك والطوائف في عصور لاحقة. كل ذلك بالإضافة إلى قلة أخبار شعراء الغزل العذري في هذا العصر، لم يتح المجال أمام الرواة للتوسع في سرد قصص هؤلاء الشعراء، وإحاطتها بتلك المبالغات وهالات التعظيم والتهويل التي أحاطت قصص العذريين والمتيمين في المشرق (٤)، كما يمكن القول إن انعدام الحواجز أو العوائق التي تحول دون لقاء الشعراء بمحبتاتهم ومجالسهن في مجالس الغناء واللهو، وتجاذب أطراف الأحاديث معهن قد

(١) هونكه، زيفريد، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، راجعه: مارون الخوري، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، ط ٢، ١٩٦٩ م، ص ٤٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٧٤.

(٣) ذكر المقرئ أنه كان محباً في العلم، ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم، فقد بلغ عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة عشرون ورقة، وليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط. يُنظر: نفح الطيب ج ١، ص ٣٦٢.

(٤) يُنظر الأغاني: ج ٢، أخبار مجنون ليلى، و ج ٢٤ أخبار عروة وعفراء.

جعل قصصهم واقعية بعيدة عن التخيلات والأوهام، وتأثير ابن حزم الأندلسي - مؤلف كتاب طوق الحمامة - المتبع للمذهب الظاهري واضح؛ فقد دفعه نزوعه الظاهري إلى إنكار أخيلة الشعراء ومبالغاتهم، فحرص في كتابه طوق الحمامة على أن يورد من حالات الحب ووجوهه ما هو موجود فعلاً لدى المحبين بلا تزئيد، ونَبّه على أنَّ مذاهب بعض الشعراء في أحاديث الحب التي أرادوا بها إظهار غرضهم، وإبانة اقتدارهم على المعاني الغامضة غير صحيحة في الأصل^(١) واعتذر في نهاية كتابه عن ذكر بعض مبالغات الشعراء وإسرافهم في المعاني مثل الإفراط في صفة النحول، وتشبيه الدموع بالمطار، وعدم النوم البتة، وقال بأنها أشياء لا حقيقة لها، وكذب لا وجه له، وذكر أنه أورد لها لكيلا يخرج عن طريقة أهل الشعر ومذهبهم.^(٢)

كما أن انتفاء الغاية التي خلقت من أجلها هذه الزيادات والمبالغات ساعد على قلتها في قصص وأخبار المحبين، فهذه الزيادات والمبالغات وجدت في العصور السابقة تلبية لحاجات السمر والإمتاع، واستثارة للتشويق والتطلع وطلباً للإغراب والإعجاب^(٣)، ولم يكن الناس في الأندلس بحاجة لذلك؛ لوجود كثير من الأمور التي يستطيعون أن يتسلوا ويقضوا أوقات فراغهم، فوسائل اللهو والتسلية وأماكنها أصبحت متوفرة ومنتشرة في هذه العصر، تفوق العصور السابقة. لذلك وجدنا أن أحداث القصة العذرية في الأندلس كانت أحداثاً واقعية لشعراء وقعوا في شباك الحب، فعبروا عن مشاعرهم تجاه مَنْ أَحَبُّوا بصدق وعفوية.

وكان للاهتمام بالغناء وانتشاره في أوساط المجتمع الأندلسي تأثيرٌ بالغٌ في انتشار الغزل، فالعرب عندما جاؤوا إلى الأندلس أحضروا معهم طرائق غنائهم مع كتبهم وشعرهم وأدبهم، كما استقدموا بعض المغنيات الحاذقات من الحجاز مثل قلم وفضل وعلم وكانت لمن دار في قصر الخلافة تعرف بدار المدنيات^(٤) ومثل الجارية العجفاء التي جلبها عبد الرحمن الداخل من العراق^(٥)، وقمر جارية اللخمي صاحب إشبيلية^(٦)، كما كان لقدوم المغني زرياب - في عهد عبد الرحمن بن الحكم - أثرٌ كبير على مسيرة الغناء في الأندلس وعلى المجتمع الأندلسي^(٧). فأضاف وتراً خامساً إلى الأوتار الأربعة الأولى التي كانت معروفة في الأندلس وهي الأصفر والأحمر والأبيض والأسود التي يتكون منها عوده الخاص الذي كان يضره بمضراب من ريش الطيور^(٨)، فأحدث نقلةً كبيرةً في الذوق الجمالي عند دخوله الأندلس، حيث أشاع

(١) يُنظر طوق الحمامة: ابن حزم، باب القنوع ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) يُنظر طوق الحمامة: ابن حزم، ص ١٨٤.

(٣) يُنظر: في الشعر الأموي (دراسة في البيئات): د. يوسف خليف، طبعة مكتبة غريب، القاهرة، سنة ١٩٩١ م، ص ١٨٥.

(٤) يُنظر نفع الطبيب، ج ٣، ص ١٤٠.

(٥) يُنظر: المرجع السابق، ج ٣، ص ١٤١.

(٦) يُنظر: المرجع السابق، ج ٣، ص ١٤١.

(٧) يُنظر: المرجع السابق، ج ٣، ص ١٢٢ - ١٣١.

(٨) سماكة، باقر، التجديد في الأدب الأندلسي:، مطبعة الإيمان، بغداد، ١٩٧١ م، ص ١٤ - ١٥.

طريقته عددٌ كبير من أبنائه وبناته وتلامذته ^(١) ونظراً لتأثير زرباب، إضافة إلى موافقة الغناء لطباع الأندلسيين ورهافة حسيّهم فقد "أغرموا بالغزل واستعانوا عليه بالموسيقى والغناء، والرقص، فكنت تسمع حين تمرُّ بالليل صوت الغناء والموسيقى في كثير من البيوت، وكثر بجانب مجالس الغناء مجالس الأدب، وربما حضرها النساء أيضاً" ^(٢)

وكان الغناء والشعر متلازمين، لأن الشعر لون من ألوان التعبير الإنساني الذي يصور خلجات القلوب والفكر، "والموسيقى شحنة انفعالات نفسية تؤثر برموزها التعبيرية، أما المغني فهو الذي يصل بالمستمع إلى الكمال طرباً لأن حنجرتة عانقت اللحن والشعر، ممّا أدى إلى معانقته بفكره وقلبه وإحساسه" ^(٣) ولهذا الارتباط الوثيق بين الموسيقى والشعر والغناء امتلأت البيوت بالمغنين "وتدلُّ الحكايات الكثيرة الأندلسية على أنّ الأندلسيين كانوا شغوفين بالسماع، حتى ليفضلون الضروري من العيش مع السماع، على العيش المترّف مع الحرمان" ^(٤) ولهذا الشغف الشديد بالسماع، اشتدت الحاجة إلى تعليم الجوّاري الغناء، ليستمتع صاحب الجارية بالغناء والجمال، وكانت الرغبة في سماع الغناء من الحسناء أكثر من سماعه من الرجل، يقول الجاحظ: "على أنّ الغناء الحسن من الوجه الحسن والبدن الحسن أحسن، والغناء الشهي من الوجه الشهي والبدن الشهي أشهى، وكذلك الصوت الناعم الرخيم من الجارية الناعمة الرخيمة، وكم بين أن تفدي إذا شاع فيك الطرب مملوكك، وبين أن تفدي أمتك؟ وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهي أن تقبله، وأن تسمعه من فم تشتهي أن تصرف وجهك عنه ! وعلى أن الرجال دخلاء على النساء في الغناء" ^(٥). وتعلّم الجارية الغناء استتبع تعلّم الأدب، فالجارية لا تستطيع الغناء إلا إذا كانت حافظة للشعر متقنة لقوله، مطلّعة على كثير من الأدب ^(٦)، لأنّ المرأة الحسناء أعلق بالنفس وأروح للخطر ممن فقدت مزية من هاتين الميزتين: الأدب والموسيقى، فتموجات صوتها يزيدنها جمالاً وإشراقاً، ويسحر السامع فيصغي بكليّته لما يتساقط من بين ثناياها، ويتمثّل في بريق عينيها ذبولاً، ولذا كان الإقبال على القيان أكثر من الإقبال على المغنين ^(٧)

ولهذا كان بعض أصحاب القيان ^(٨) يعلمونهنّ الأدب والشعر والغناء، وكانت قيمتهنّ تتضاعف كلما زادت مهارتهنّ، فكان صاحب القينة يحرص على تثقيفها بنفسه، أو يحرص على أن يجلب لها المؤدّبين والمعلمين، وكان أكثر تجار القيان من المغنين، على ذلك كانوا في المشرق عند إبراهيم ثم إسحاق الموصلي الذي كان يشتري الجوّاري ويعلمهنّ الغناء

(١) البجاري، يونس طركي، المعارضات في الشعر الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨ م، ص ٣٧.

(٢) ظهر الإسلام: أحمد أمين، ج ٣، ص ٣٣.

(٣) يُنظر: عابدين، سامي، الاتجاهات الغنائية في قصر المأمون، دار ميراز، بيروت، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣ م.

(٤) ظهر الإسلام، ج ٣، ص ٣٠.

(٥) الجاحظ: مجموعة الرسائل الكلاميّة، من كتاب النساء، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط ٣، ١٩٩٥ م، ص ٩٦.

(٦) ضحى الإسلام: أحمد أمين، ج ١، ص ٩٠.

(٧) سابا، عيسى، المغنيات في الأدب العربي دار الثقافة، بيروت، ص ٨.

(٨) القينة: قيل الأمة مغنية كانت أو غير مغنية، وقيل القينة الأمة المغنية، ويقال للمغنية قينة إذا كان الغناء صناعة لها، وذلك عمل الإماء

دون الحرائر، والجمع قيان، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (ق ي ن)

والأدب، ثم يبيعهنَّ بأضعاف ما اشتراهن به، وعلى ذلك كان إمام المغنين في الأندلس " زرياب "، وقد وجدناه يصحو من النوم ليلقي لحناً على جاريته غزلان وهنيدة، ثم يعود لنومه ^(١) ووجدناه بالتالي يعلم جارية جميلة لديه واسمها (متعة)^(٢) الغناء، ثم يقدمها للخليفة عبد الرحمن الأوسط ليحظى عنده.

استمر اهتمام خلفاء وملوك وأمرء الأندلس بالغناء والموسيقى والقيان طيلة فترة حكمهم للجزيرة الأندلسية، فمنذ عهد عبد الرحمن الأوسط كان تعليم الغناء والموسيقى يشكّل جانباً كبيراً من التعليم العام للقيان، وبلغ من انتشار القيان، وازدهار فن الغناء في إشبيلية ما تحدّث به التيفاشي فذكر " أن بها عجائز يعلمن غناءً لجوارٍ مملوكات هن، ويشترين من إشبيلية لكافة ملوك المغرب وإفريقيا، تباع الجارية منهن بألف دينار مغربيّة، فتعني الجارية على الآلة التي تشتتر في بيعها، وربما كانت تتقن العزف على جميع الآلات " ^(٣)، واستمر هذا الاهتمام بالموسيقى والغناء والحرص على وجود هذه الفئة من المغنين في الوسط الأندلسي إلى فترات لاحقة، فلم يكن ملوك الطوائف بأقل غراماً باللّهو والغناء ممن سبقهم، فقد كثر في عهدهم المغنون والمغنيات، والمعتمد بن عباد والمأمون بن ذي النون مثل لاحتفال الحكام بمجالس اللّهو والغرام بالعزف والغناء " ^(٤)

فإذا كان الأمر كذلك من الاهتمام الكبير بالموسيقى والغناء من قبل الحكام والملوك والأمراء على امتداد فترة الوجود العربي في بلاد الأندلس، فلا بد أن ينعكس هذا على انتشار الشعر عامة وعلى شعر الغزل خاصة، للارتباط الشديد ما بين شعر الغزل والغناء. وهذا الانعكاس سببه ثقافة الحاكم واتجاهاته فيما ينتجه الشعراء، " وليس معنى ذلك أن الأمراء والحكام كانوا يصدرون أوامرهم إلى المؤلفين ليعالجوا هذا الموضوع أو ذلك بهذه الطريقة دون تلك، ولكن احتلال الحكام مركز القيادة في المجتمع هو الذي هيأ لهم توجيه هذه الدراسات سواء أكان ذلك التوجيه مقصوداً أو غير مقصود " ^(٥)، لذلك انتشر وشاع - لا شعورياً - شعر الغزل في الأندلس لتلبية للحاجة الماسة إليه في الغناء، لأنه يشكل المادة الخام الأساسية له، وبما أن معظم المغنين كانوا إناثاً، لذلك فإننا وجدنا أن مجمل هذا الغزل المُعنى في مجالس هؤلاء الحكام وفي مجالس السمر والأنس الخاصة قد اتصف بالعفة والطهر والابتعاد عن الإسفاف والابتذال والمجون. " فكان للغناء شأن كبير في رسم أسس جديدة للاتجاهات الشعرية في الأندلس " ^(٦). فما أن يُعبر الشاعر عن حبه، ويتغزل بحبيبته

(١) يُنظر: نفح الطيب، ج ٣، ص ١٢٣.

(٢) عاشت في القرن الثالث للهجرة، عصر ازدهار قرطبة وسيادتها، وصلت إلى درجة كبيرة من الإتقان في صناعة الغناء والأدب، فقد جمعت إلى حسن الغناء، وجمال الصوت، جمال الصورة.

(٣) الموسوعة الموسيقية الشاملة، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط ١، ١٩٩٤ م، ج ١، ص ٩٢.

(٤) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر - عصر ملوك الطوائف، ص ٥٤ - ٥٥.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٤٧.

(٦) يُنظر: تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة ص ٥٣ - ٦٢.

بمقطوعة شعرية حتى تنتشر هذه القصيدة على لسان المطربين وتُغنى بأجمل الألحان في مجالس الخلفاء والأمراء ومجالس السمر الأخرى المنتشرة بكثرة.

وكان **لظهور في الموشحات والأزجال** وانتشارها في الأندلس أثرٌ على شيوع شعر الغزل الذي " احتل محل الصدارة في الموشحات الأندلسية " ^(١) لما ارتبطت به منذ أطوارها الأولى بالموسيقى والغناء، ولأن الموشحات " اتسمت برقة وعدوبة وصفاء ألفاظها، حتى يمكن قراءة مجموعة كاملة منها دون أن يصادف فيها لفظة تستعصي عليه، أو تركيباً فيه لون من ألوان التعقيد " ^(٢) اتصفت تلك الموشحات أيضاً بالعفة والطهر والابتعاد عن الإسفاف والابتذال والمجون شأنها شأن القصائد المغناة آنفة الذكر.

خلاصة القول: يتبين لنا أنّ الحضارة الأندلسية، ومن خلفها الأدب الأندلسي، حضارةٌ عربية صرفة، لم تقم على أساس فارسي أو إغريقي، نشأت هذه الحضارة وازدهرت بجهود علمائها وأدبائها، وتشجيع حكامها وأمرائها على العلم وحرصهم على تحصيل العلوم. كما أن تجربة الغزل العذري تأثرت بعوامل وظروف عدة جعلتها تختلف عن تجربة الغزل العذري المشرقي وكان للظروف السياسية أثر بالغ في خلق حالة من عدم الاستقرار أصابت الشخصية الأندلسية سببها الاضطرابات والأحداث التي مرت بها البلاد فخلّفت عشاقاً أبعدوا عن أوطانهم ومحبوباتهم فعاثوا حالة مستمرة من الحنين والأنين والشوق إلى مراحب المحبوبة وإلى الماضي السعيد. كما انتفت المبالغة عن قصص العشق والحب الأندلسية، فأحداث القصص العذرية في الأندلس كانت أحداثاً واقعية لم تدخلها المبالغات، زاد من انتشارها وكثرتها انتشار الغناء والموشحات والأزجال، التي اتصفت جميعها بالعفة والطهر، مبتعدة عن الإسفاف والابتذال.

لقد انعكس قلق الحياة السياسية المضطربة قلقاً في المجتمع الأندلسي، وتناقضاً كبيراً بين الحياة المضطربة الصاخبة وبين الحياة الناعمة الهادئة، لذلك كان دأب الناس والشعراء مستمراً للوصول إلى حياة النعومة واللذة والمتعة، وبدا ذلك الاضطراب واضحاً في شعر الملوك والأمراء الذين عبّروا عن مشاعرهم بمقطوعات غزلية مشحونة بالعاطفة أطفأت من جذوة نفوسهم المتقدة وحدّت من وطأتها ونقّست من حشرجتها.

تأثر الغزل العذري بكل تلك العوامل ولكنه يبقى بالدرجة الأولى فناً أدبياً لم يكن سيكتب له الازدهار والانتشار لولا امتلاك هؤلاء الشعراء لملكة شعرية مكنتهم من صوغ أدبهم وشعرهم بهذه الصورة الجميلة المشرقة. فالحضارة الأندلسية أشبه بطفل عربي ولد في الأندلس وبقي يستقي حليبَه وغذاءَه من أمه التي في المشرق، إلى أن شب ونما، وظهرت شخصيته، فبرع في الفنون التي أخذها عن أمه وطورها.

وقد أملت الظروف السياسية والاجتماعية والبيئية التي عاشها الأندلسيون على شعراء الأندلس النزوع إلى موضوعات شعرية أكثر من غيرها؛ فجمال الطبيعة الأندلسية وسحرها الأخاذ دفعهم إلى الإكثار من وصف الطبيعة والتفنن فيه،

(١) عناني، محمد زكريا، الموشحات الأندلسية، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٣١، شعبان ١٩٩٨ م، ص ٤٢.

(٢) الموشحات الأندلسية: د. محمد زكريا عناني، ص ٣٧.

وتنوّع أصول المجتمع الأندلسي وحرية المرأة دفعهم إلى التنوع في وصف مظاهر الحياة الاجتماعية والتفنن في شعر الغزل وما اتصل به من مجال الغناء والطرب واللهو. وكان لسقوط مدّهم في أيدي الإسبان أثرٌ بالغٌ في الإكثار من شعر الاستنجد وشعر رثاء المدن والشعر السياسي والتاريخي بشكل عام.



الفصل الثاني

مظاهر الشعر العذري الأندلسي وسماته وخصائصه

بعد أن قمنا بدراسة شعر الغزل العذري الأندلسي والعوامل التي أثرت به بهذه الظاهرة الأدبية، لابد لنا من الوقوف على المظاهر والسمات والخصائص الفنية التي تميز بها.

المبحث الأول: مظاهر الغزل العذري الأندلسي

من خلال دراسة الشعر الغزلي العذري في الأندلس واتجاهاته والمظاهر التي كانت تتمثل بشعر عدد من الشعراء الذين عاشوا في عصر واحد وبيئة واحدة أو بيئات متقاربة، فقد بدا لي أن أصنفهم في مجموعات ثلاث:

الأولى: طائفة من الشعراء اتخذوا العذرية مذهباً في الحياة والشعر. كابن الحداد الوادي آشي، وابن زيدون وابن فرج الحياتي وابن حزم الأندلسي.

الثانية: طائفة أخرى كانت العذرية صبغةً غالبية على شعرهم. كابن عبد ربّه الأندلسي وعبد الرحمن بن مقانا والمعتمد بن عباد.

الثالثة: طائفة أخرى كانت العذرية لديها مجالاً للإبداع وإظهار المقدرة الشعرية. كابن اللبانة ويحيى بن حكم الغزال والرمادي وابن جُزّي.

وسأقوم — إن شاء الله — بدراسة شاعر واحد من كل طائفة كأمثلة، حياته وشعره الغزلي العذري.

أولاً: العذرية مذهب في الحياة والشعر: ابن الحداد الوادي آشي:

حياته وثقافته: من أشهر شعراء المرية وأدبائها في عهد المعتصم بن صمادح، واسمه الكامل باتّفاق جلّ المصادر: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان القيسي المعروف بابن الحداد^(١) وينتهي نسبه إلى قيس عيلان إحدى القبائل العربية العريقة، وإلى ذلك يشير في قوله من قصيدة مدح بها المعتصم: ^(٢) [من الطويل]

خليلي من قيس بن عيلان خلياً	ركابي تعرج نحو منعرجاً
بعيشكما ذات اليمين فإنني	أراح لشمّ الروح* من عقداها**
فقد عبت ربح النعامي كأنما	سلام سليمي راح في نفخاتها

(١) ابن بسّام، الذخيرة ١/٦٩١: ٢. وابن سعيد المغربي الأندلسي، أبو الحسن علي بن موسى، المغرب في حلى المغرب، المحقق: د. شوقي ضيف الناشر: دار المعارف - القاهرة. ١٤٤/٢. ورايات الميزّين، ١٠٦. القضاعي، ابن الأبار، التكملة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥: ٣٩٨/١، ترجمة رقم ١١١٩. القفطي، المحدثون من الشعراء، محمد عبد الستار خان إيم، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الطبعة الأولى، ١٣٠، ترجمة ٦٤.

(٢) الذخيرة ٢/٧١٣: * الروح: الريح الطيبة، **العقدات: شجر ورقه يلحم الجروح.

وُلد ابن الحداد في وادي آش، وهي كما وصفها المقرئ: مدينة جلييلة قد أهدقت بها البساتين والنهار، وقد حصّ الله أهلها بالأدب وحب الشعر^(١) وهي كما وصفها لسان الدين بن الخطيب "مدينة الوطن ومناخ من عبر أو قطن، للناس ما بدا والله ما بطن، وضع سديد، ومعدن حديد، وبلد لا يعتل فيه إلا التّسيم، ومرأى يخجل منه الصباح الوسيم، كثيرة الجداول، والفواكه الكثيرة والكروم الأثيرة. وهي دار أحساب وإرث واكتساب وأدب واحتساب."^(٢) وإلى هذه المدينة يُنسب شاعرنا ويُعرف تبعاً لذلك بالوادي آشي، وإذا كنّا نجعل تاريخ ولادة ابن الحداد على وجه التحديد، فإنّنا نعلم أنّه انتقل من وادي آش إلى المرية وقضى فيها أكثر عمره^(٣) ملازماً للمعتصم منذ صباه إلى اكتهاله وفيه استفرغ جلّ مدائحه^(٤).

وقد أحبّ ابن الحداد المرية واتّخذها موطناً فيه نشأ وترعرع، وآثرها على غيرها من البلدان، بل لم يرض عنها بديلاً، فلم تغوه لا مصر بنيلها، ولا بغداد بفراقها، ولم يجد الجاه والسلطان مكاناً في قلبه يغريه بالتماسه بعيداً عنها وفي ذلك يقول:^(٥)

[من الطويل]

وكم خطبتني مصر في نيل نيلها	ورامت بنا بغداد وُردَ فراقها
ولم أرض أرضاً غير مبدأ نشأتني	ولو لحثّ شمساً في سماء ولاتها
ولي أمل أن يسعد السعد نلتته	وفهم سرّ النفس في رمزاتها
وأسنى المنى ما نيل في ميعه	وهل تحسن الأشياء بعد فواتها

وكان ابن الحداد على درجة عالية من النبوغ والمعرفة، ملماً بمعارف عصره، وقد شهد له بذلك من ترجم له من القدماء، قال ابن بسّام فيه: "كان أبو عبد الله هذا شمس ظهيرة، وبحر خبر وسيرة، وديوان تعاليم مشهورة، وضح في طريق المعارف وضوح الصبح المنتهّل، ترى العلم ينمّ على أشعاره، ويتبين في منازعه وآثاره."^(٦) ووصفه لسان الدين بن الخطيب بأنّه شاعر مفلق، وأديب شهير مشار إليه في التعاليم منقطع القرن منها في الموسيقى، مضطلع بفكّ المعنى^(٧). وأورد المقرئ

(١) المقرئ، نفح الطيب ١/١٤٩.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، ربحانة الكتاب ونجعة المتأب، تحقيق: محمد عبد الله عنان، دار النشر: مكتبة الخانجي - القاهرة -

١٩٨٠م الطبعة: الأولى ٢ / ٢٦٨.

(٣) ابن بسّام، الذخيرة ١/٦٩٢: ٢.

(٤) ابن الأبار، التكملة ١/٣٩٨.

(٥) ابن بسّام، الذخيرة ١/٧١٥: ٢.

(٦) ابن بسّام، الذخيرة ١/٦٩١: ٢-٦٩٢.

(٧) الإحاطة ٢/٣٣٢. ويُظنّ معجم البلدان ٢/١٩.

أنّه شاعر ماح وعلّى ألك الندى صاآح؁ تميّز بالعلم وتميّز إلى فئة الوقار والحلم^(١). وأما شعره فهو كثير غزير؁ إلا أنّه لسوء الحظ لم يصلنا من إلا مقتطفات غلب عليها طابع المآح والغزل؁ وشعره في الغزل ينقسم إلى قسمين رئيسين؁ جاء أحدهما مستقلاً ضمن مقطوعات وقصائد تتفاوت طولاً وقصراً؁ وجاء ثانيهما في مستهلّ جلّ مدائحه للمعتصم بن صماآح على وجه الخصوص. فأما غزله المستقل عن قصائد المآح؁ والذي عبّر فيه بآارة عن وجدانه فكان في فتاة مسيحية مُني بها في صباه؁ وهي كما يذكر ابن بسام " صبيّة نصرانية؁ ذهبت بلبه كلّ مذهب؁ وركب إليها أصعب مركب؁ فصرف نحوها وجه رضاه؁ وحكّمها في رأيّه وهواه؁ وكان يسمّيها (نورة) كما فعل الشعراء الظرفاء قديماً في الكناية عمّن أحبّوه؁ وتغيير اسم من علقوه." ^(٢) واسمها على الحقيقة (جميلة) وإلى ذلك يشير ابن الحداد بعد أن صآف اسمها بـ " الخميّلة " إذ يقول: ^(٣) [من الوافر]

أتعلم أنّ لي نفساً عليّة
وفي طيّ الخميّلة ريم أنس
وأشواقاً مبرّحة دخيّلّة
رمزت بها فلّله الخميّلة

وقد طاب لابن الحداد وهو المضطلع في فكّ المعنى تعميّة اسم محبوبته جميلة بالألغاز؁ وصيانتّه عن الذكر في شعره بمثل قوله: ^(٤) [من البسيط]

صنت اسم إلقي فدأباً لا أسمّيّه
وصاآبي عآديّ قد رمزت به
وجذر أوله ربع لآخره
وإنّ ثانيّه خمّس لثالثه
ولا أزال بالغازي أعمّيّه
بذكر أعداد ما تحوي مبانيه
وجذر آخره ربع لثانيّه
فافهم فقد لاح للأفهام خافيّه

ويعود ابن الحدّاد في موضع آخر إلى اللعب باللقاء الرموز الكثيرة في جميلة؁ مبرزاً ثقافته اللغوية والتاريخية وعلمه بالحساب؁ ناسجاً على منوال الأبيات السابقة وزناً وقافيةً إذ يقول: ^(٥) [من البسيط]

أما الذي بي فإني لا أسمّيّه
لكن سألقي رموزاً جمّة فيه

(١) نفآ الطيب ٤/٤٩.

(٢) ابن بسام؁ الذخيرة ١/٦٩٢:٢.

(٣) ابن بسام؁ الذخيرة ١/٢:٧٠٩.

(٤) ابن بسام؁ الذخيرة ١/٢:٤٠٦.

(٥) ابن بسام؁ الذخيرة ١/٢:٧٠٧؁ ولعلّه يقصد أخت الرشيد عليّة وقد أولعت بجمال " طلّ "

فجذر أوله عُشْرُ لثانيه
رأيت ثالثه زهراً معانيه
فقد تبين ماضيه وباقيه

إذا أردت من الأعداد نسبته
وإن أضفت إلى ذي الجذر رابعه
ونصفه أولعت أخت الرشيد به

بين ابن الحداد وجميلة:

ابتغى ابن الحداد الإسلام ديناً أمّا جميلة فكانت تدين بالنصرانية - كما ذكرنا - وقد دلّ ابن الحداد على ذلك حين قال: ^(١) [من الطويل]

وبين المسيحيات لي سامريّة
بعيد على الصّبّ الحنفي أن تدنو
مثلثة قد وّحد الله حسنّها
فنتى في قلبي بها الوجد والحزن

وقد ذكر ابن بسّام أن الشاعر قد ركب إلى هذه المحبوبة أصعب مركب، ولعلّ هذا المركب الصّعب إن لم يكن يقصد به ما تكبّده ابن الحداد من مشاق، في سبيل هذا الحبّ الذي غلب عليه طابع الصد الكامل من قبل "نيرة" كما رأى ابن الحداد أن يسمّيها، فلعلنا نجد له تفسيراً في ما أورده ابن فضل الله العمري من "أنّ شاعراً مغربياً يُعرف بابن الحداد مرّ بدير (القلالي) بمصر وهو مضطرب إلى قوص* ليحجّ من جهة عيذاب** في البحر، فرأى ديرانية اسمها نيرة كأنما أدكاها في قلبه منظرها، وشبّها في جوانحه من خدودها المحمّرة نظرها فألقى عندها عصي سفره ولقي عندها ما يؤمل من ظفره، وترك الحجّ كأنّه ما تعتّى له من أقصى بلاده، ولا نوى إليه السفر في رحلته وزاده" ^(٢). وحسب هذه الرواية فإنّ ابن الحداد قد ركب فعلاً إلى محبوبته أصعب مركب، إذ أنّ المسافة التي تفصل بين مكان المحبوبة بمصر، والشاعر بالأندلس، بعيدة وشاقّة، وإن كان ابن بسّام لم يشر إلى رحلة الحج التي أشار إليها ابن فضل الله. ومن الملاحظ أن هذا الأخير يذكر أنّ اسمها نيرة، دون أن يشير إلى ما أشار إليه ابن بسّام من أنّ هذا الاسم أطلقه الشاعر كناية على غرار الشعراء الظرفاء في الكناية عمّن أحبّوه وتغيّر اسم من علقوه. وحسب رواية فضل الله أيضاً فإنّ نيرة ديرانية مصرية وليست إسبانية، وهذا ما مال إليه الدكتور اسماعيل شليبي إذ قرّر آخذاً برواية المسالك أنّ أصل ألف ابن الحداد من مصر، ^(٣) إلا

(١) ابن بسّام، الذخيرة ٢/١: ٧٠٨، والسامرية: نسبة إلى السامري الذي عبد العجل وهو رجل من بني إسرائيل (القاموس المحيط، مادة: سمر)

(٢) ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ٢٠١٠، ٣٨٤/١. * قوص: قال ياقوت الحموي في معجم البلدان الفكرة - بيروت (٤/٤١٣): إنها لفظة قبطية، وهي مدينة واسعة، عظيمة، قصبة صعيد مصر، شرقي النيل. ** وعيذاب: بلدة على ضفة بحر القلزم، وهي مرسى المراكب التي كانت تقدم من عدن إلى الصّعيد، وبحر القلزم قريب من مدينة قوص (معجم البلدان: ٤/٣٨٧، ٣٨٨)

(٣) - شليبي، سعد إسماعيل، دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، دار تحفة مصر، القاهرة: ١٣٨.

أن معظم الدارسين للأدب الأندلسي من القدماء والمحدثين يؤكدون أن صاحبة ابن الحدّاد من الأندلس،^(١) ومهما يكن من أمرها ومكان نشأتها فإننا نكتفي بطرح تساؤل الدكتور إسماعيل شلبي: "ولا يسعنا إزاء هذا إلا أن نأخذ ما يعيننا ولا يتطرّق إليه شكّ وهو أنّ ابن الحدّاد شاعر أندلسي، هام بحبّ مسيحية وأقدرته البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها على أن يتغلّز في هذه الراهبة"^(٢)

غزل ابن الحدّاد في نويرة:

لقد هام شاعرنا هياماً شديداً بهذه الديارانية وغرق في حبّها من رأسه حتّى قدميه، وكان حبّه لها حبّاً غدّته عواطف الشباب، وأضرمت ناره فترات الصبا، ممّا جعل ابن الحدّاد لا يقوى على إخفائه، فعلى الرغم من حرصه الشديد على كتمانها ولجوئه إلى الطبيعة واستعارته من نوارها اسماً مصغراً لحبيبته يصون به اسمها الحقيقي عن الذكر، فإنّ هذا الحبّ ما لبث أن ذاع بين النّاس، وأصبح حديثاً يشتهى لكثرة ما جاد به وجدان الشاعر الوهّان من أشعار غنائية عذبة استلذّ سماعها العشّاق، وتداولها الندماء والعازفون بالغناء في أحضان الطبيعة، وذاك ما قدره الشاعر حين قال:^(٣) [من الطويل]

سيصبح سرّي كالصّباح مشهّراً
ويغري بذكرى بين كأس وروضة
ويُسمي حديثي عرضة المتحدّث
وينشد شعري بين مثني ومثلث

ويبدو أنّ ابن الحدّاد قد أحسّ بأنّ تيار الهوى قد جرفه، وأنّه لا يمكن له أن يظلّ لائذاً بالكتمان، وأدرك أنّ حبّاً جارفاً كجبه لنويرة صاحبه مجنون وإن بدا للناس على خلاف ذلك فقال يبيّن مدى سلطان الهوى على نفسه:^(٤) [من الطويل]

رويدك أيّها الدمع الهتون
يُظنُّ بظاهري حلمٌ وفهمٌ
إلى كم أستسرّ بما ألقى
نويرة بي نويرة لا سواها
فدون عيان من أهوى عيون
ودخلة باطني فيه جنون
وما أخفيه من شوقي يبين
ولاشك فقد وضح اليقين

(١) للتوسع يُنظر: الأدب في المرية في عهد بني صمّاح، للغوثي العربي الشريف (رسالة قدّمت لنيل درجة الماجستير في جامعة حلب، إشراف الأستاذ الدكتور عمر الدقاق) حيث ناقش الباحث هذه الفكرة وتوصل إلى أنّها من الأندلس. ص ٨٦-٨٩.

(٢) إسماعيل شلبي، دراسات أدبية في الشعر الأندلسي: ١٤٠.

(٣) ابن بسّام، الذخيرة، ٢: ٧٠٦/١.

(٤) ابن بسّام، الذخيرة ٢: ٧٠٨/١ والهتون: المنصب، أو الضعيف الدائم.

فإلى متى يظل ابن الحدّاد يستسرّ بما يلاقه من عذاب المحبين ؟ وإلى متى يظلّ يخفي أشواقه الحارّة إلى نورية وقد كشفها دمعته الهتون ؟ فلا بدّ أن يصارحها بحبّه ويكشف لها عن أسرار قلبه، لعلّه يضع بذلك حدّاً لمعاناته.

وقد خطا ابن الحدّاد هذه الخطوة الصعبة على ما يبدو، إلا أنّه لم يلق من نورية ما كان يأمل، ولم يسمع منها ما كان يحبّ، ومع ذلك استلذّ سماع الرّدّ على قسوته وها هو يطلب من الوسيط ألاّ يسأم من ذكر كلّ ما كان من أمر نورية بشأنه، لأنّ ذلك يؤنسه وإن أوقد فيه نيران الأشواق، وعذّب نفسه عذاباً لا يُطاق: ^(١) [من الطويل]

حديثك ما أحلى فريدي وحديثي	عن الرشأ الفرد الجمال المثلث
ولا تسأمي ذكره فالذكر مؤنسي	وإن بعث الأشواق من كلّ مبعث
وبالله فارقي خبل نفسي بقوله	وفي عقد وجدي بالإعادة فانثني
أحقاً وقد صرّحت ما بي أنّه	تبسم كاللاهي بنا المتعبّث؟!

لاشك أنّ نورية في ريب من صدق حبّه، بل هي على يقين أنّ ما يطلبه ابن الحدّاد منها إنّما هو نزوة شهوانية، وغمامة غرام سرعان ما تنقشع، قابليتها بابتسامة السخرية واللامبالاة، فراح يردّ سوء ظنّها به، ويحاول إقناعها بصدق مشاعره نحوها واجداً في دمعته الهتون أصدق برهان. فلمّا رآها قد أعرضت عنه إعراضاً كاملاً، وأشاحت عنه بوجهها، وولّته أدرك أنّه لا سبيل إلى حبّها، وأنّه يحاول عبثاً استمالة قلبها. وكيف يتمّ له ذلك وهي كما رآها وتبيّنت له حقيقتها، تجمع بين متناقضين ليس في الإمكان الجمع بينهما: ^(٢) [من الكامل]

ورأت جفوني من نورية كاسمها	ناراً تضلّ، وكلّ نار ترشّد
والماء أنت وما يصحّ لقابض	والنّار أنت وفي الحشا تتوقّد

فهو الماء في امتناعها عليه ونفورها منه، وهي النّار في فتنها إياه وتوقّدها في حشاه، وهي صورة جميلة لموقف نورية السلي منه، وتعبير عن لحظات اليأس التي استولت على قلبه ثمّ ما لبث أن عاوده الأمل في الحصول على رضا نورية فلجأ إلى أسباب أخرى لجلب اهتمامها به وحنانها عليه، ولعلّه لم يجد أفضل من اللجوء إلى القسّ وإخباره بقصّته عسى

(١) ابن بسّام، الذخيرة ٢: ٧٠٦. وابن فضل الله، المسالك: ٣٨٥. وابن الخطيب، الإحاطة: ٣٣٥/٢.

(٢) ابن بسّام، الذخيرة ٢: ٧٠٤. وابن فضل الله، المسالك: ٣٨٤.

أن يساعده في إقناع نويرة بالرضا به، والاستجابة إلى حبّه، لأنّه يعلم أنّ عيسى عليه السلام أتاهم بدين المحبّة والرحمة ولم يأتهم بدين الكراهية والقسوة، وفي ذلك يقول: ^(١) [من الطويل]

عساه مغيث المدنف المتغوّث	ولا بدّ من قصّي على القسّ قصّي
فيقسو على مضني ويلهو بمكرث	فلم يأتهم عيسى بدين قساوة
هوى في غزال الوادين المرعّث	وقلبي من حسن التجلّد عاطل

ويبدو أنّ محاولة ابن الحدّاد هذه قد خابت هي الأخرى، أو هو الذي عدل عنها لتوهّمه أنّ القسّ لا يمكن أن يكون له غوثاً، إذ لا بدّ أن تسحره نويرة بجمالها، وتوقعه في شرك حبّها وخاصة أنّه — كما تبادر إلى ذهن ابن الحدّاد — لا يتّقي الله حقّ تقاته، وإتّما هو يتظاهر بالإيمان، ولو أتيحت له الفرصة لافترس نويرة وصاحباتها الراهبات افتراس الذئب للنعاج: ^(٢) [من السريع]

كلّ قسّ مظهر للتقى	بآي إنصاّ وإخبار
وعينه تسرح في عينهم	كالذئب يبغي فرس نعجات
وأبي مرءٍ سالمٍ من هوى	وقد رأى تلك الطيبات ؟

وهكذا ظلّ ابن الحدّاد يشكو اللوعة ويجتزّ الآلام، ويضمّد جراح الحبّ دون أيّ أمل في الشفاء، إذ لا سبيل إلى الظفر برضا نويرة، كما أنّه لا سبيل إلى التخلّص من هوى هذه الغادة الفاتنة التي ما أن يراها الرائي حتّى يقع أسيراً في غرامها، وقد كان شاعرنا من بين ضحايا حبّها وسحر جمالها، فهو يكتوي بنار البعد المتلظّية في أحشائه، ويرى باحساس الحبّ وسلطان الهوى أنّ القرب من نويرة هو جنّة المأوى: ^(٣) [من الطويل]

ومن جرحته مقلتناك نويرة	فليس يرجى من جراح الأسى أسوا
أرى كلّ ذي سلوى رآك متيماً	فما أكثر البلوى بحسنك والشكوى
ونار الأسى تخبو بقرب نويرة	ومن لي بأن آوي إلى جنة المأوى

(١) ابن بسّام الذخيرة ٢:٧٠٦/١. وابن الخطيب، الإحاطة: ٣٣٥/٢. والمدنف: المريض والعليل. والمكرث: الشديد الحزن. والمرعّث:

الرعة: القرط، وترعّثت المرأة: تقرّطت أي علّقت قرطين في أذنيها.

(٢) ابن بسّام، الذخيرة ٢:٧٠٥/١. الإخبار: الخشوع والخنوع.

(٣) ابن بسّام، الذخيرة ٢:٧٠٨/١.

ومما زاد في لوعة الشاعر وأساه أن نورية صارت تحتجب كلما تراه، فزاد بها بلباله، وعظم اختباله - على تعبير ابن فضل الله^(١) وأخذ يتحين كلّ الفرص لرؤيتها وبثها المزيد من الشكوى والاستعطاف، فلما كان يوم عيد من أعياد النصارى، برزت نورية في أترابها فوقف عليهنّ الشاعر وقال راجياً من نورية أن تريحه ممّا يعانيه من عذاب:^(٢) [من الهزج]

عساك بحق عيساك
فإنّ الحسن قد ولا
مريحة قلبي الشاكي
لِ إحيائي وإهلاكي

واستمر ابن الحدّاد على هذا النمط من الاستعطاف، يحاول إقناعها بحبه، وأنّه لولاها لما تردّد على الكنائس، ولما أولع بصلبانها ورهبانها ونساكها، وهو الحنفي المسلم إذ يقول:^(٣) [من الهزج]

وأولعني بصلبان
ولم آت الكنائس عن
ورهبان ونساك
وها أنا منك في بلوى
ولا أستطيع سلواناً
هوى فيهنّ لولاك
ولا فرج لبلواك
فقد أوثقت أشراكي

وإذا كانت نورية قد ملكته بحسنها، وصار أمر إحيائه وإهلاكه بيدها، فلم تحتجب حين تراه ؟ ولم لا ترثي لبكاه ؟ وهل تدري ما تفعل بعينيه عيناها ؟ وكيف تمقته وهو يهواها، وكل شيء يذكره بما إذا غاب عنه محيّاها ؟ هكذا يستمر ابن الحدّاد في التوسّل إلى نورية لعلّها تعبأ به وتشفق على حاله:^(٤) [من الهزج]

فكم أبكي عليك دماً
فهل تدريين ما تقضي
حجبت سنائك عن بصري
وفي الغصن الرطيب وفي الـ
وعند الرّوض خدّاك
نورية إن قلّيت فإنـ
ولا ترثين للباكي
على عيني عيناك؟
وفوق الشمس سيماك
نقا المرتج عطفاك
ومـن رياه رياك
ني أهواك أهواك

(١) المسالك: ٣٨٥.

(٢) ابن بسّام، الذخيرة ١/٧٠٧: ٢. والمسالك: ٣٨٥.

(٣) ابن بسّام، الذخيرة ١/٧٠٧: ٢. والمسالك: ٣٨٥.

(٤) ابن بسّام، الذخيرة ١/٧٠٧: ٢. والمسالك: ٣٨٥. * النقا المرتج: الأرض الكثيرة النبات، العطف: طول الأشعار.

ويمثل هذه المشاعر الرقيقة التي تبرز موقف الحبيب وهو أمام حبيبته يعاتبها على الصّدّ منه، ويحاول أن يقنعها بالاستجابة إليه ومبادلته حبّاً بحب، راح ابن الحداد يتغنّى في أشعاره بنويرة، ويكي عليها بكاء بلبل مكسور الجناح، متلاعباً بالمعاني المستمدّة من الجوّ المسيحي من تثليث وزنّار وإنجيل ومحبة من جهة، وصلبان ورهبان ونسّاك من جهة أخرى، ناقلاً إلينا الجوّ الذي كان تعيش فيه محبوبته، معيّراً عن ذلك في حرارة ووجد يتميّز به على كثير من سائر الغزل الأندلسي - على حدّ تعبير الدكتور إحسان عبّاس -^(١). وإذا كانت هذه القصيدة يرين عليها طابع التقرير والخطابة، ويغلب فيها التفكير على الخيال الشعري فإننا نجد أشعاراً غزلية في نويرة على جانب من العاطفة كقوله:^(٢) [من الطويل]

وبين المسيحيات لي سامريّة	بعيد على الصبّ الحنفي أن تدنو
مثلثة قد وخذ الله حسنّها	فثنّي في قلبي بها الوجد والحزن
وطيّ الخمار الجون حسن كأنما	تجمّع فيّة البدر والليل والدجن
وفي معقد الزنار عقد صبابتي	فمن تحته دعص ومن فوقه غصن
وفي ذلك الوادي رشاً أضلعي له	كناس، وقمري فؤادي له وكن

وإذا ما أخذنا موقف نويرة السلي من ابن الحداد، وأن الحب كان من جانبه هو وحده أدركنا لماذا غلب على شعره فيها طابع الشكوى والبكاء، كما ندرك في الوقت نفسه سبب خلو شعره من الصور التي يولّدها البعد بعد اللقاء والجفاء بعد الحب، إذ عادة ما يكتبوي الحبّ بنار الشوق والحنين إلى ابتسامة حلوة ارتسمت على شفّتي حبيبته، أو نظرة عطف وحنان رآها في عينيها، فتهيجه الذكريات، ويسرح خياله في رسم ذلك بأحلى الصور وأعذب العبارات، ويطلق لنفسه العنان في إبداء اللوعة وتصوير الشوق والحرمان إلا أنّ ابن الحداد لم يوفّق في نيل رضی نويرة، بل لم تترك له حتّى فرصة التحدّث إليها، واحتجبت عنه نهائياً، ولذلك نجد ابن الحداد يتعجّب من هذا الحب الوحيد الجانب إذ يقول:^(٣) [من المتقارب]

فيا عجباً أن ظلّ قلبي مؤمناً	بشرع غرام ظلّ بالوصل كافرا
أرجي لسلواني نشورا وحسنها	يري رأي ذي الإلحاد أن ليس ناشرا

(١) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين: ١٦١

(٢) ابن بسّام، الذخيرة ١/٧٠٨: ٢. والجون: الأخضر الضارب إلى السواد، والدجن: الغيم الكثيف.

(٣) ابن بسّام، الذخيرة ١/٧١٧: ٢

وكم تمخى ابن الحداد لو أنّ الحب كان يؤخذ بالقوة، أو عن طريق الحرب على وجه التحديد، لأنّه واثق من انتصاره على نويرة، وأخذها سبيّة، يقول^(١): [من الطويل]

وفي شرعة التثليث فرد محاسن	تنزل شرع الحب من طرفه وحيا
فمن لجفوني بالتماح نويرة	فتاة هي المردى لنفسى والمحيا
سبتي على عهد من السلم بيننا	ولو أنّها حرب لكانت هي السبيا

ويتابع ابن الحداد فكرة تغلب الضعيف على القوي متعجباً من وقوعه أسير جمال ذلك الغزال وهو ليث الغاب القوي المهاب، فقد اختل ميزان القوى ولم يعد له في شرع الحب، وأمام روعة الجمال، وتحت سلطان الهوى أيّ مقياس:^(٢) [من الطويل]

غزالية المرأى هلالية الرنا	منارية المجلنوارية اللقية
رمتنا بألحاظ نلذ سهامها	فيا ليتها في القلب لم ترم الرميا
فقد صاد ليث الغاب ظي كنيسة	فأعجب به ليثاً وأعجب به ظيبا

وإذا تساءلنا محاولين معرفة السبب الرئيس الذي جعل نويرة لا تستجيب لابن الحداد على الرغم من هيامه الشديد بها، فلعلنا نجد لذلك جواباً في شعر ابن الحداد نفسه حين يقول:^(٣) [من الطويل]

وبين المسيحيات لي سامريّة
بعيد على الصبّ الحنيفي أن تدنو

(١) ابن بسام، الذخيرة ٢:٧٠٩/١. وقد نسب العماد الأصفهاني هذه الأبيات لابن بليطة، خريدة القصر وجريدة العصر (المغرب والأندلس): عماد الدين الأصفهاني الكاتب (العماد الأصفهاني) تحقيق: محمد المرزوقي، محمد العروسيا المطوي، الدار التونسية للنشر - ١٩٨٦م (١٧٤/٢)

(٢) العماد، خريدة القصر وجريدة العصر ١٧٤/٢. هذه الأبيات أوردها منسوبة لابن بليطة ولم ترد في الذخيرة ولا غيرها.

(٣) مذكور في مقطع سابق.

فهو في هذا البيت يشير بوضوح إلى أن اختلاف دينها عن دينه هو الذي أبعد الشقة بينها وبينه، ولا شك أنه يلقي ذلك على عاتق الدين المسيحي وحده، لأن ابن الحداد كان مثقفاً بالثقافة الفقهية التي نشطت في المرية، وهو يعرف أن الدين الإسلامي يبيح له ولغيره من المسلمين الاقتتان بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب، إذ يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ٥٠﴾^(١) فالمسيحيون هم الذين كانوا لا يسمحون باقتتان نسائهم بالمسلمين.

ومع كل تلك الظروف والصد من قبل نورية فقد بذل ابن الحداد كل ما لديه في سبيل إرضائها، وإلانة قلبها، ألا أنه لم يترك فيها أي أثر، وكأنما كان ينادي أصم، أو يكلم أخرس: ^(٢) [من الطويل]

وآمل من دمعي إلانة قلبه ولا أثر للغيث في الحجر الصلد

وإذا كان ابن الحداد لم يستطع الوصول إلى قلب نورية فإنه في الجهة المقابلة لم يستطع التخلص من حبه الفاشل لها، وظلّ يذكرها في شعره على مرّ السنين: ^(٣) [من السريع]

وفي الحشا نار نويريّة علّقتهَا منذ سنّيات
لا تنظفي وقتاً وكم رُمتهَا بل تلتظي في كلّ أوقاتي

وشخصها لا يغيب عنه لحظة، ولا يفارق صوتها مسمعه برهة، وفي ذلك يقول: ^(٤) [من السريع]

أستودع الرحمن مستودعي شوقاً كمثّل النّار في أضلعي
أترك من أهوى وأمضي كذا والله ما أمضي وقلبي معي

(١) سورة المائدة، الآية: ٥.

(٢) ابن بسّام، الذخيرة: ٢٠٧١٩/١. الصلد: الصلب الأملس. وسنّيات: سنوات.

(٣) الذخيرة: ٢٠٧٠٥/١.

(٤) ابن خاقان: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، الوزير الكاتب أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي الإشبيلي، تحقيق: محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣ م، الطبعة: الأولى: ٨٢.

ولا نأي شخصك عن ناظري

حيناً ولا نطقك عن مسمعي

وحثي في القصائد التي مدح ابن الحداد المعتصم بما نجده يستهل بعضها بذكر هذا الغرام الذي ظلّ بالوصل كافراً، كما في قوله ^(١): [من المتقارب]

فيا عجباً أن ظلّ قلبي مؤمناً

بشرع غرام ظلّ بالوصل كافراً

ولولا أبو يحيى بن معن محمد

لما كانت الأيام عندي ذخائراً

فلا تنكروا مني بديعاً فمجده

نوادير قد أوحى إليّ النوادر

أو كما في قوله مقابلاً بين حبّه الفاشل الذي لم يجن منه سوى الشقاء والتعاسة، وبين مدحه للمعتصم الذي غمره بفضله وكرمه، مستخلصاً من ذلك نصيحة لأهل الهوى يعبر فيها عن آخر ما توصّل إليه في حبّ نورية، ويستميل بها قلب ممدوحه معاً ^(٢): [من الطويل]

لقد سامني هوناً وخسفاً هواكم

ولا غرو عرّ الصبّ أن يتعبدا

إذا شئت تنكياً وتنكيد عيشة

فحسبك أن تهوى سُلَيْمى ومهددا

وإن تبغ إحساناً وإحماد مقصد

فحسبك أن تلقى ابن معن محمدا

ومقدمات ابن الحداد الغزليّة لم تكن تقليداً فنياً، أو كما قال شاعر العربية أبو الطيّب المتنبي ^(٣): [من الطويل]

إذا كان مدحاً فالنسيب المقدّم

أكل فصيح قال شعراً متيّم

وإنما كانت صادرة عن قلب متيّم كلف بتلك الفتاة النصرانية بكل صدق ومعاناة.

لقد كان ابن الحداد واحداً من الشعراء الأندلسيين الذين أوقفوا شعرهم في الغزل على محبوبة واحدة، ومن أشهر هؤلاء إلى جانب شاعرنا ابن الحداد هو ابن زيدون الذي ما إن يذكر شعراء الغزل الأندلسي حتّى يذكر في طليعتهم. وقد عقد الدكتور إحسان عباس مقارنة بين قصّة ابن الحداد وصاحبته نورية وبين قصّة ابن زيدون وصاحبته ولادة، وتوصّل إلى أنّ

(١) ابن بسام. الذخيرة ١/٧١٧: ٢.

(٢) ابن بسام. الذخيرة ١/٧٢١: ٢.

(٣) ديوان المتنبي ٣/٣٥٠، دار المعرفة للطباعة، بيروت.

سبب شهرة قصّة ابن زيدون وطغيانها على سواها من قصص الحبّ والغزل الأندلسيين راجع إلى " أنّها قصّة تمثّل العلاقة الأرستقراطية بين اثنين من السادة أحدهما مخزومي النسب، وصاحبه أموية من بيت الخلافة، ولذلك خلدت قصّة ابن زيدون ونسي ابن الحداد. ثمّ إنّ ابن الحداد كان قد تَوَرَّط في حبّ فتاة على دين غير دينه، وأكثر في شعره من التحدّث عن المعاني المتّصلة بذلك الدين، وما أظنُّ أنّ مثل ذلك الشعر يحدث صدئ كبيراً في بيئة محافظة. هذا إلى فرق كبير في ما أحرزه الرجلان من الطريقة الشعرية: فابن زيدون يجتري الموسيقى، والسياق سهل سائع، أمّا ابن الحداد فإنّه يمثّل الشاعر المثقّف بالثقافة الفلسفية والعلمية، وشعره يميل إلى التعمق الفكريّ يبعد به المستوى العام الذي يألفه الناس ويتطلّبونه." (١)

هذا بالإضافة إلى ما رأيناه من صدّ نوية المطلق وسليبتها الكاملة، وغموض شخصيتها، على خلاف وضوح شخصيّة ولادة، واستجابتها لابن زيدون ومبادلتهما إياه حبّاً بحب، ثمّ غيرتها عليه وهجرها له ممّا " ترك أثراً في شعر كلّ من الرجلين، فقصائد ابن الحداد زفّرات ملّتاغ يشكو ويتشبّث بالوصول، فالحب فيها من جانب واحد، أمّا قصائد ابن زيدون فإنّها غيوم أسى احتشدت بعد الفراق والتغيّر، فهي حسرة على ما فات، وبكاء على عهود انقضت وأحلام تبددت، أي هي حكاية قصّة كاملة ذات طرفين." (٢)

كانت تلك صورة عن علاقة ابن الحداد بنوية بشكل خاص، وقد بدا شاعرنا فيها عاشقاً متيمّاً يعلل النّفس بلقاء المحبوب، والظفر بلحظات الوصال السعيدة، منتقياً لذلك ألفاظاً نقيّة لا تشوبها شائبة المحجون والخلاعة، وبدا صادقاً في حبّه لنوية يودّ السكن إليها ولا يبغى منها سوى المودّة والرحمة. ولعلّ ذلك ما جعل نوية تشغل القسم الأكبر من شعره في المرأة وعواطفه نحوها، في حين لم تظهر المرأة في شعر ابن الحداد إلا في معرض المقدمات الغزليّة التي استهلّ بها مدحه. وهو بذلك يكون قد سار على درب الشعراء العذريين.

(١) إحسان عبّاس. تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين: ص ١٦١ - ١٦٢.

(٢) نفسه: ١٦٢.

ثانياً: العذرية صبغة غالبية على الشعر: ابن عبد ربه الأندلسي:

هو أحمد بن عبد ربه بن حبيب بن حَدِير^(١) بن سالم القرطبي، مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن الحكم الأموي^(٢)، المكنى أبو عُمَر^(٣)، وتتفق المصادر على أنه وُلِدَ في قرطبة عاصمة الأندلس سنة ٢٤٦ هـ^(٤) وتلقى العلوم على يد شيوخ عصره فدرس الفقه والتاريخ ثم عني بممارسة النظم والكتابة وأدام النظر في كتب المشاركة، يذكر الفرضي أنّ ابن عبد ربه "سمع من بقي بن مخلد وابن وضّاح والحشني"^(٥)، لذا فقد تلقّف ابن عبد ربه علوم الفقه والحديث واللغة والشعر والتاريخ والأخبار والسِّيَر، وحسبنا شاهداً على ما نقول كتابه (العقد الفريد) الذي لم يدع في الأدب، بمعناه العام، شيئاً إلا ذكره فيه أو نوّه عنه، حتى قال عنه ابن دحية "صاحب كتاب العقد، أنجد وغار وعلا بذكره الآفاق والأقطار"^(٦)، وقال الحميدي: "كان لأبي عمر بالعلم جلاله وبالأدب رياسته وشهرة"^(٧).

ويمكن تقسيم حياته إلى مرحلتين متميزتين:

(١) ورد الاسم في البداية والنهاية (جرير) محرفاً

(٢) يُنظر: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت. ج ١، ص ١١٠.

(٣) كل من ترجم لابن عبد ربه أو ذكره كناه بهذه الكنية، يُنظر: الحميدي: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، محمد بنفتوح بن عبد الله، تحقيق: بشار عواد معروف - محمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، ط ١: ٢٠٠٨، ص ٩٤، وابن دحية، عمر بن حسن: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان، ص ١٥١، ووفيات الأعيان ج ١، ص ١١٠.

(٤) يُنظر: جذوة المقتبس ص ٩٤، ووفيات الأعيان ج ١، ص ١١٢، الوافي بالوفيات ج ٨، ص ١٠.

(٥) ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزد، المعروف بابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس. دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٠: ج ١، ص ٥٠. وبقي بن مخلد: المتوفى سنة ٢٧٦ هـ كان ذا علم واسع، رحل إلى المشرق فلقى جماعة من أئمة المحدثين، وأدخل إلى الأندلس كثيراً من كُتُب المشاركة مثل كتاب العين للفراهيدي، وفقه الإمام الشافعي، ومصنف ابن أبي شيبة، والطبقات لابن الخياط، كما صَنَف كتباً كثيرة في علوم القرآن والحديث، راجع: تاريخ العلماء والرواة للعلم في الأندلس: ج ١، ص ١٠٧ - ١٠٨. ومحمد بن وضاح: المتوفى سنة ٢٨٧ هـ كان عالماً بالحديث، بصيراً بطُرُقَه، متكلاً على علله، ورعاً زاهداً، محتسباً في نشر العلم، راجع: تاريخ العلماء والرواة للعلم في الأندلس: ج ٢، ص ١٨، والحشني: لا يقل عن سابقه مكانة وعلماً، فقد رحل إلى المشرق والتقى بكثير من لغويّتها، أدخل إلى الأندلس كثيراً من الكتب المشرقية وروى كثيراً من اللغة والشعر الجاهلي، راجع: تاريخ العلماء والرواة للعلم في الأندلس: ج ١، ص ١٤٦.

(٦) المطرب من أشعار أهل المغرب: ص ١٥١.

(٧) جذوة المقتبس: ص ٩٤.

سمي هذا النوع من الشعر (الممحصات) تجدها في ديوانه.^(١) وما يُلفت النظر غياب تلك الممحصات عن كتابه (العقد الفريد) وهذا يؤكد أنه نظمها بعد سنة ٣٢٢ هـ التي أنهى فيها تأليف كتابه، وربما كان هذا التاريخ هو تاريخ توبته التي رافقت نظم الممحصات، وقد جاوز السبعين من عمره.

اتصل ابن عبد ربه بأمراء بني أمية في أواخر القرن الثالث ومدحهم ونال عطاءهم، كما أنها أدرك حكم عبد الرحمن الناصر وفي هذه المرحلة تحول الحكم من نظام الإمارة إلى نظام الخلافة، فأكثر من مدحه والثناء عليه ووصف غزواته وانتصاراته على المتمردين، ولم يكتفِ بذلك، بل نظم أرجوزة في غزواته وانتصاراته انتهى بها إلى سنة ٣٢٢ هـ، أي قبل وفاته بست سنوات ضمت (٤٤٤) بيتاً، أبدى فيها قدرة واضحة على النظم وتمكنه من قول الشعر، وثبت قدمه في الأدب وسعة أفقه في الخيال، فمع أنها كانت من المنظومات التاريخية، إلا أن هذا لا يعني تجرّدها من الفن وعنصر الخيال^(٢).

مرضه ووفاته:

امتد العمر بابن عبد ربه، وحين بلغ الثمانين " أصيب بمرض الفالج " ^(٣) ويبدو أنه مرض في حدود سنة ٣٢٢ هـ لأنه توقف عن نظم أرجوزته التاريخية عند هذه السنة، إلا أنه لم يتوقف عن قول الشعر، فقد أجمعت المصادر أنه قال أبياتاً " قبل موته بأحد عشر يوماً، وهو آخر شعر قاله، وفيه بيان سنّه " ^(٤). يقول^(٥): [من الطويل]

بَلَيْتُ وَأَبْلَيْتَنِي اللَّيَالِي بِكَرِّهَا	وصرفانٍ للأيام مُعْتَوِرَانِ
وَمَا لِي لَا أَبْكِي لِسَبْعِينَ حَجَّةَ	وعشرٍ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا سَنَتَانِ!
فَلَا تَسْأَلَانِي عَنْ تَبَارِيحِ عَلِي	ودونكما مني الذي تريان
وَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ رَاجٍ لِفَضْلِهِ	ولي من ضمان الله خير ضمان
وَلَسْتُ أَبَالِي مِنْ تَبَارِيحِ عَلِي	إذا كان عقلي باقياً ولساني
هَما ما هما في كل حال تلم بي	فذا صارمي فيها وذاك سناني

وتوفي في قرطبة سنة ٣٢٨ هـ ^(١)، وحين شيعت جنازته تجمّع حولها من الناس " حشدٌ كبيرٌ أبهرت يحيى بن هذيل، وكان إذ ذاك صغيراً، فسأل: لمن هذه الجنازة ؟ فقيل له: لشاعر البلد " ^(٢) وهذا دليل على ما كان يتمتع به هذا الشاعر من مكانة في قرطبة.

(١) يُنظر: بغية الملتبس: ص ١٣٨، وجذوة المقتبس: ص ٩٥، والوافي بالوفيات: ج ٨، ص ١١. راجع الديوان المقطوعة رقم (٩٧) ص ٨٧، نقضها المقطوعة رقم (١٠٥) ص ٩١. وغيرهما.
(٢) راجع الأرجوزة التاريخية في الديوان ص ١٧٧ - ٢٠٠.
(٣) الوافي بالوفيات: ج ٨، ص ١٠.
(٤) جذوة المقتبس: ص ٩٦، وبغية الملتبس: ص ١٣٨.
(٥) الديوان: المقطوعة رقم (٢٧٣) ص ١٦٣ - ١٦٤.

شعره الغزلي

يُعد ابن عبد ربّه شاعراً مبدعاً سريع الخاطر، ذا قدرة على الارتجال والنظم على البديهة، نظم في معظم أغراض الشعر كالمديح والهجاء والغزل والرثاء والزهد ووصف الحروب وغيرها. وحسبنا دليلاً على قوة شاعريته رأي المتنبّي فيه عندما سمع شيئاً من شعره فقال: " يا ابن عبد ربّه لقد يأتيك العراق حيوّاً " (٣).

أما شعره الغزلي فقد كان غزيراً متوهجاً مع أنه لم يُعرف عنه قصة حبٍ أو عشق لفتاة معينة، إنما كان شعره الغزلي ينطلق من عاطفته، فعندما يجد الجمال والحسن تتحرك مشاعره وأحاسيسه فينطلق لسانه شعراً عامراً بالملاحظة والرقّة والسهولة، تحيمن عليه الغنائية والموسيقية. فقد كان ينحو نحو الشعر الغزلي العذري المشرقي من وصف جمال محبوبته والتغزل بها ووصف رقتها وحسن جمالها، وتصوير آلام الحب وعذابه من نار حبها ومن فراق المحبوب وهجره.

فمقطوعاته التي يتغزل بها بمحبوبته ويتغنى بها وبجمالها تكاد تغطي على مجلّ شعره الغزلي، (٤) فوصف محبوبته وأحسن الوصف، فهي حيناً فتاة مدللة قوامها ممشوق، نافست الشمس جمالاً وحسناً ومكانة ونوراً، وشابهت الغزال برشاقتها وجمال عيونها، ويطغى اللون الأبيض الفضي على لون جسمها إلا لون خدودها فهو كالذهب من شدة حيائها، يقول (٥): [من الخفيف]

ذات دَلٍّ وشاحها قَلْبُ	مِنْ ضُمُورٍ وَجَلُّهَا شَرِقُ
بَرَزَتِ الشَّمْسُ نَوْرَهَا وَحَبَاهَا	لَحَظَ عَيْنِيهِ شَادِنٌ حَرِقُ
ذَهَبٌ حُدُّهَا يَذُوبُ حَيَاءً	وَيَسْوَى ذَاكَ كُلُّهُ وَرِقُ

(١) يُنظر: جذوة المقتبس: ص ٩٤، وبغية الملتبس: ص ١٣٧.

(٢) جذوة المقتبس: ص ٣٥٨.

(٣) راجع القصة في: ابن خاقان، الوزير الكاتب أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، دار النشر / مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٨٣م، الطبعة: الأولى. ص ٥٥.

(٤) راجع الديوان: المقطوعة رقم (٢٧) ص ٥١ - ٥٢، ورقم (٣٩) ص ٥٧، ورقم (٧٧) ص ٧٧، ورقم (٨٧) ص ٨٢، ورقم (٨٩) ص ٨٣، ورقم (١٠٤) ص ٩١، ورقم (١٠٧) ص ٩٢، ورقم (١٠٨) ص ٩٣، ورقم (١٢٤) ص ٩٨، ورقم (١٢٦) ص ٩٩، ورقم (١٢٧) ص ٩٩، ورقم (١٣٣) ص ١٠٢، ورقم (١٤٨) ص ١١٠، ورقم (١٥٦) ص ١١٤، ورقم (١٥٨) ص ١١٤ - ١١٥، ورقم (١٦٦) ص ١١٩، ورقم (١٧٣) ص ١٢٣، ورقم (١٧٤) ص ١٢٣ - ١٢٤، ورقم (١٨٢) ص ١٢٦، ورقم (١٨٩) ص ١٢٩، ورقم (٢٠٦) ص ١٣٧، ورقم (٢١٧) ص ١٤٠ - ١٤١، ورقم (٢٢٥) ص ١٤٤، ورقم (٢٣٠) ص ١٤٧، ورقم (٢٣٢) ص ١٤٨، ورقم (٢٧٧) ص ١٦٥، ورقم (٢٧٨) ص ١٦٥ - ١٦٦، ورقم (٢٨١) ص ١٦٧، ورقم (٢٩١) ص ١٧١.

(٥) الديوان: المقطوعة رقم (١٧٣) ص ١٢٣.

وهي حيناً آخر ترتفع عن مرتبة البشر والجن لتصل - في عينه - إلى رتبة الملائكة التي خلقها الله من النور ^(١): [من مجزوء الوافر]

غَزَالَ زَانَهُ الْحَوُّورُ وَسَاعَدَ طَرْفُهُ الْقَدْرُ
يُرِيكَ إِذَا بَدَا وَجْهَهَا حَكَاهُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
بَرَاهُ اللَّهُ مِنْ نُورٍ فَلَا جَنٌّ وَلَا بَشَرُ

والمحبة هي داؤه ودواؤه، هي أمله ورجاه من هذه الدنيا، لكنها تخلف وعدّها ولا تعيره أيّ اهتمام ولا تكلف نفسها عناء الإجابة عما يطلب منها، لذلك نراه يذرف الدموع وتمتليّ حياته كآبةً وتذهب نخوته ومروته فداء لها قال ^(٢): [من مخلع البسيط]

مَا أَقْرَبَ الْيَأْسَ مِنْ رَجَائِي وَأَبْعَدَ الصَّيْرَ مِنْ بُكَائِي
يَا مُذَكِّي النَّارِ فِي فُؤَادِي أَنْتَ دَوَائِي وَأَنْتَ دَائِي
مِنْ لِي بِمُخْلَفَةٍ فِي وَعْدِهَا تَخْلِطُ لِي الْيَأْسَ بِالرَّجَاءِ
سَأَلْتُهَا حَاجَةً فَلَمْ تَقْضِ فِيهَا بِنَعْمٍ وَلَا بِإِلَاءِ
قُلْتُ: اسْتَجِيبِي فَلَمَّا لَمْ تُجِبْ فَاصَتْ دُمُوعِي عَلَى رِدَائِي
كَأَبَهُ الْوَدَلُ فِي كِتَابِي وَخَنَوَةُ الْعِزِّ فِي الْجَوَاءِ

ونجده يتألم ويعاني من آلام الفراق والبعد عن محبوبته، فهو يواجه الموت إثر فراقها ولا يحتمل غيابها عن بصره، فالآلام جسمه وأسقامه سببها البعد والفراق، ويطلب من هذا البعد والبين أن يصفح عنه ويتركه يعيش هانئاً بقرب محبوبته، وبالمقابل فمحبوبته لا تكثر به، فهي تنام في سعادة وسرور وهو لم يذق طعم النوم والراحة لبعدها، يقول ^(٣): [من الرمل]

هَيَّجَ الْبَيْنُ دَوَاعِي سَقَمِي وَكَسَا جِسْمِي ثَوْبَ الْأَلَمِ
أُيْهِيَ الْبَيْنُ أَقْلَنِي مَرَّةً فَإِذَا عُذْتُ فَقَدْ حَلَّ دَمِي

(١) الديوان: المقطوعة رقم (١٠٨) ص ٩٣.

(٢) الديوان: المقطوعة رقم (٦) ص ٤٣. ومثلها مقطوعات عديدة تصور آلام الحب وعذابه مقابل صد الحبوب وبعده وهجره، راجع الديوان: المقطوعة رقم (١١) ص ٤٥، ورقم (٢٢) ص ٤٩ - ٥٠، ورقم (٢٤) ص ٥٠، ورقم (٣٤) ص ٥٤، ورقم (٨١) ص ٧٩، ورقم (٨٦) ص ٨٢، ورقم (٩٥) ص ٨٦، ورقم (١٢٣) ص ٩٨، ورقم (١٥٥) ص ١١٣، ورقم (١٦١) ص ١١٦، ورقم (١٦٤) ص ١١٨، ورقم (١٨٨) ص ١٢٩. وغيرها.

(٣) الديوان: المقطوعة رقم (٢٥٠) ص ١٥٤.

ياخُلِّي الدَّرْعَ نَمَّ فِي غِبْطَةٍ إِنَّ مَنْ فارقَتْهُ لَمْ يَنْمِ
ولقد هاج لقلبي سَقَمًا ذَكَرُ مَنْ لَوْ شَاءَ دَاوَى سَقَمِي

فهي تبتعد عنه وتهجره لمدة طويلة، ونراه يطالبها بعدم نسيانه لأنها شغله الشاغل فلا حياة له بدونها، يقول ^(١): [من
المديد]

يا طويل الهجر لا تَنْسَ وَصْلي واشتغالي بِكَ عَنْ كُلِّ شُغْلٍ

وهو يبكي ويتضرع لمحبوته لأنها قتلتها بصرمها وهجرها وبعدها عنه، فهي ظالمة تعاقبه بالهجر والبعد فقد أصابت منه
المقتل لأنها لا تبادله الحب ولذلك يذرف عليها الدموع ويتجرع كأس المرارة والحزن، فهو يبكي على صدها وبعدها لا
على الأطلال الدارسة، ويذكرها بأنه لا ذنب أعظم من قتل النفس ^(٢): [من مجزوء البسيط]

ظالمتي في الهوى، لا تَظْلَمِي فَتَضْرِمِي حَبْلَ مَنْ لَمْ يَضْرِمِ
أَهْكَذَا باطلاً عاقبتني؟ لا يَرْحُمُ اللَّهُ مَنْ لَمْ يَرْحِمِ
قَتَلْتِ نَفْساً بلا نفسٍ، وما ذَنْبٌ بِأَعْظَمَ مِنْ سَفَاكَ الدَّمِ
لمثل هذا بكَثْ عَيْني ولا للمَنْزِلِ القَفْرِ وللأَرْسَمِ
ماذا وَقَوِي على رَسْمٍ عَفَا مُحْلُولِ قِي دَارِسٍ مُسْتَعْجِمِ

ونجده على طريقة الشعراء العذريين يخشى الوشاة والعدال والرقباء ^(٣) مع أنه يعيش في مجتمع متحرر نوعاً ما، لكن
الوشاة في أي مكان لا يتركون المحبين سعداء، فهم يسعدون لوقوع الخلاف بينهم، وشاعرنا يعاني كما منهم، لكنه لا
ييدي لهم اليأس والحزن الذي يعاني منه بل على العكس يُظهر لهم أنه سعيد فَرِحَ، لكن في الواقع حزين يغرق في الدموع
لأن محبوبته لا تُشفق عليه يقول ^(٤): [من الطويل]

أَلا بِأَيِّ مَنْ قَلْبِهِ غَيْرَ مَشْفِقِي عَلَيَّ وَلِي قَلْبٌ عَلَيْهِ شَفِيقُ
وإني لأبدي للوشاة تَبَسُّماً وإنساناً عَيْني في الدُّمُوعِ غَرِيقُ

(١) الديوان: المقطوعة رقم (٢٢٦) ص ١٤٤.

(٢) الديوان: المقطوعة رقم (٢٥٤) ص ١٥٦.

(٣) راجع الديوان: المقطوعة رقم (١٠) ص ٤٥. و المقطوعة رقم (٤٣) ص ٥٩. و المقطوعة رقم (١٧٢) ص ١٢٣. و المقطوعة رقم
(٢٦٠) ص ١٥٨.

(٤) الديوان: المقطوعة رقم (١٧٢) ص ١٢٣.

وهو يتحين الفرصة ويتربص ساعة غفلة الرقيب ومن يقوم على حراستها للحصول على ساعة هائلة بقرب الحبيب، ويضطر الإعراض عنها بوجهه إن بدت أمامه وإلى عدم التصريح باسمها خوفاً منهم وصوناً لها يقول (١): [من المتقارب]

أيا ويح نفسي وويل أمها	لما لقيت من جوى همها
فديت التي قتلت مُهجتي	ولم تتق الله في دمه
أغض الجفون إذا ما بدت	وأكيتي إذا قيل لي سمها
أداري العيون وأخشى الرقيب	وأرضد غفلة قيمها
سبتني بجدٍ وخدٍ ونحرٍ	غداة رمثني بأسهمها

ويعمد في كثير من الأوقات إلى إخفاء شخص من يحب ويخفي اسمها ويكني عنها بأسماء أخرى تكريماً لها، وخوفاً عليها من نظرات الحاسدين، فجمال محبوبته جمال غير عادي يفوق جمال البشر، فهي كالهلال في ظهورها على البشر، وكالنجم المتلألئ الذي تعجز العين عن النظر إليه لحسنه، لدرجة أن النمل يكاد يدمي جلده الناعم لو مشى عليه، يقول (٢): [من مجزوء الرمل]

يا هلالاً في تجنيبه	وقضيباً في تنبيهه
والذي لست أستميه	ولكني أكتيه
شادن ما تقدر العي	ن تراه من تاليه
كلما قابلته شخ	ص رأى صورته فيه
لأن حتى لو مشى الذر	ر عليه كاد يذميه

وحب هذه الفتاة - التي ذاق في سبيل حبها كل ألوان العذاب واللوعة حتى وصل إلى حد الموت - ما هو إلا قدرٌ مُقدَّر عليه لا مفر منه، فهي تعيش حياتها سعيدة هائلة لا تأبه به ولا تعاني ما يعانیه قلبه: (٣) [من الرجز]

قلب بلوعات الهوى مغموود	حي كميّت، حاضِر مُفُود
ما دُقْتُ طعم الموت في كأس الأسى	حتى سقّيته الطباء الغيود
من ذا يُداوي القلب من داء الهوى	إذ لا دواء للهوى مَوْجود

(١) الديوان: المقطوعة رقم (٢٦٠) ص ١٥٨.

(٢) الديوان: المقطوعة رقم (٢٨٤) ص ١٦٨.

(٣) الديوان: المقطوعة رقم (٥٩) ص ٧٠.

أَمْ كَيْفَ أَسْأَلُو عَاذَةً مَا حُبُّهَا إِلَّا قَضَاءٌ مَا لَهُ مَرْدُودُ

وهو بعد أن آمن أن الحبَّ قضاءً من الله عليه يقدِّم كل فروض الطاعة والخضوع والاستسلام لها ويسلِّمها زمام أمره، فقد سلَّم قلبه لمحبوته ولها حرية التصرف به كما تشاء، إن أرادت أن تمنحه الحياة أو أن تقتله، فهو راضٍ بحكمها خاضعٌ لها بعد أن منحها ذلك القلب وكل ما طلبت منه، يقول^(١): [من مجزوء الرجل]

أَعْطَيْتُهُ مَا سَأَلَ	حَكَمْتُ لَهُ لَوْ عَدَلَا
وَهَبْتُ لَهُ رُوحِي فَمَا	أَدْرِي بِهِ مَا فَعَلَا
أَسْأَلُ لَمَنْتُهُ فِي يَمِينِهِ	عَيْشَتُهُ أَمْ قَاتَلَا
قَلْبِي بِهِ فِي شُغْلٍ	لَا مَلَلٍ ذَاكَ الشُّغْلَا

ويعود إلى قلبه ويعاتبه بلسان عقله كلما أحسن بالألم فيقول له: لقد تعرضت للأذى والعذاب بسببك ونتيجة لأفعالك، فاصبر على الذل والهوان، فإن مات القلب كمدًا وحرناً وحباً فهو من اختار هذا الطريق لِمَيْتَتِهِ، فقد وجد الحبَّ سيفاً مشرعاً في وجهه ومع ذلك جرَّد ذلك السيف واتكأ عليه فأرداه قتيلاً، قال^(٢): [من الطويل]

أَقُولُ لِقَلْبِي كُلَّمَا ضَامَهُ الْأَسَى	إِذَا مَا أَبَيْتَ الْعَزَّ فَاصْبِرْ عَلَى الذُّلِّ
بِرَأْيِكَ لَا رَأْيِي تَعَرَّضْتُ لِلْهَوَى	وَأَمْرِكَ لَا أَمْرِي وَفَعْلَكَ لَا فَعْلِي
وَجَدْتُ الْهَوَى نَصَالاً لِمَوْتِي مُغْمِداً	فَجَرَّدْتُهُ ثُمَّ اتَّكَيْتُ عَلَى النَّصْلِ
فَإِنْ كُنْتُ مُقْتُولاً عَلَى غَيْرِ رِيَّةٍ	فَأَنْتَ الَّذِي عَرَّضْتَ نَفْسَكَ لِلْقَتْلِ

فهو ينجح إلى مناجاة قلبه على هذا النحو الشجي وكأنه مجرد منه كائن ثانٍ انساق وراء نزوته فحق عليه أن يعاني مرارة الحب، ومثل هذا الأسلوب ينطوي على جدلية تجعل التعبير متسماً بصراع وحركة تتجاذب على مستوى العاطفة التي يبشها الشاعر في نصه.

وأسلوب ابن عبد ربِّه الشعري عامر بالعدوبة والرقّة وقرب المأخذ، ولعل مفتاح شخصيته في شعره أنه لا يوغل في المجاز ولا يغوص على المعنى وهو ينظم برشاقة وخفة ومن هنا كانت عبارته ترق في الأسماع وتطرب الأذان. "ولا عجب في هذه الرقة فهو أحد الشعراء الأندلسيين في القرن الرابع الهجري الذين يُكثرون من الغزل ومجالس الأُنس"^(٣). ولكِنَّه كان

(١) الديوان: المقتوعة رقم (٢٠٢) ص ١٣٦.

(٢) الديوان: المقتوعة رقم (٢٢١) ص ١٤٢.

(٣) مقدمة الديوان ص ٣٦.

يُشعرنا دوماً بأنّه يصنع شعره صنعاً، لغرض أو معارضة أو تقليد، سيّما وأنه لم تذكر المراجع ولم يُعرف عنه قصّة حبٍ لفتاةٍ بعينها، بل نظم شعراً غزيراً مفعماً بالعواطف اتسم بمعظم سمات الغزل العذريّ المشرقيّ.

ثالثاً: العذرية مجال للإبداع: ابن اللبّانة الداني

التعريف بابن اللبّانة^(١): هو أبو بكر محمّد بن عيسى بن محمّد اللخميّ الدّاني، المعروف بابن اللبّانة نسبةً إلى أمّه التي تعمل ببيع اللبن، له كنيّتان هما: أبو بكر وابن اللبّانة. وهو عربيّ الأصل، لخمّي الانتماء والنسب، يظهر ذلك في كثرة تحمّسه للخميين وفي مدائحه لبني عبّاد وافتخاره بهم، نحو قوله^(٢): [من الخفيف]

مِنَ بَنِي الْمَنْذِرِينَ وَهُوَ انْتِسَابٌ زَادَ فِي فَخْرِهِ بَنُو عَبَّادٍ
فَتَيْيَةً لَمْ تَلِدْ سِوَاهَا الْمَعَالِي وَالْمَعَالِي قَلِيلَةٌ الْأَوْلَادِ

وُلِدَ في مدينة دانية^(٣)، ونشأ شاعراً في أحضان أمّه التي ترملت وهو طفل صغير، فأحسنّت تربيته وتعليمه، واتّخذت بيع اللبن مهنة لتعول نفسها وأولادها^(٤). وقد بدأ حياته الأدبية بالتطواف على ملوك الطوائف للتكسّب بشعره؛ دفعته إلى ذلك حاجته الماديّة وعوزة، وشجّعته عليه طبيعة الحياة السياسيّة آنذاك وتنافس ملوك الطوائف على من يلهج بانتصاراتهم، إلى أن انتهى إلى قرطبة^(٥) ليهنئ حاكمها المعتمد بن عبّاد بفتح قرطبة، ثمّ انتقل إلى بلاطه في إشبيلية حيث نال هناك من الحظوة والمكانة والإكرام ما أنساه مرارة الأيام السابقة، إلى أن حدثت مأساة بني عبّاد، بعد أن وقع المعتمد في الأسر، مع ذلك بقي شاعراً وفيّاً للمعتمد، وداوم على زيارته في منفاه بأغصات^(٦) ولم ينقطع عنه، ولم يقصد المرابطين لأنّه كان كارهاً لهم حاقداً عليهم، بعد ذلك "قدم ميورقة، ومدح ملكها مبشر بن سليمان"^(٧)، فوجد فيها المكان الرحب، وحظي لديه بمكانة رفيعة، ومدحه بقصائد رائعة، لكنّ حسّاده ومنافسيه كادوا له وحاكوا له المؤامرات

(١) يُنظر: المقرّي: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م، ج ٤، ص ٢٥٩. و ابن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩م، ج ٣، ص ٢، ص ٦٦٦ - ٧٠٢. والمراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٢١١.

(٢) ابن اللبّانة، ديوان ابن اللبّانة الداني، تحقيق: محمّد مجيد السعيد، دار الراية، عمّان، الطبعة الثانية: ص ٤٩.

(٣) دانية: مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية على ضفة البحر شرقاً. يُنظر: الحموي، ياقوت: معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٣٤.

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق ٣، م ٢، ص ٦٦٧.

(٥) قُرْطُبة: أعظم مدينة بالأندلس وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقعة، وتقع في وسط الأندلس. يُنظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي: مج ٤، ص ٣٢٤.

(٦) أغصات: ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش. يُنظر: معجم البلدان، مج ١، ص ٢٢٥.

(٧) المقرّي: نفح الطيب، ج ٤، ص ٢٥٩.

فترك ميورقة ولجأ إلى بجاية^(١) التي كان يحكمها باديس بن المنصور، ثم عاد إلى ميورقة واستعطف ناصر الدولة، وظلَّ فيها حتى توفي سنة (٥٠٧ هـ)، ودُفن في ميورقة بجانب الشاعر أبي العرب الصقلي ودُفن إلى جانبه فيما بعد الشاعر المشهور ابن حمديس الصقلي^(٢).

وقد جمع في شعره أغراض الشعر العربي كالمديح والهجاء والغزل وشعر الطبيعة كما خصَّص دواوين بمواضيع خاصة من مثل كتابه الذي أسماه "نظم السلوك في وعظ الملوك" وهو في رثاء دولة بني عبَّاد^(٣)، وله مؤلَّفات أخرى أشارت إليها بعض المصادر والمراجع منها "مناقل الفتنة"، و"الاعتماد في شعر بني عبَّاد"، و"سقيط الدرر ولقيط الزهر" في شعر بني عبَّاد^(٤). والمرجَّح في أخبار هذه المؤلَّفات أنَّها تتحدَّث عن تاريخ الأندلس وتاريخ بني عبَّاد خاصَّة، وقد نقل واقتبس منها بعض المؤرِّخين مثل ابن سعيد والمقري وغيرهما، لكنَّها لم تصل إلينا وضاعت مع ما ضاع من روائع الأندلس ومصنَّفاتهما في مختلف المجالات والفنون

الغزل في شعر ابن اللبَّانة الداني:

الغزل من أقدم الأغراض الشعرية وأكثرها فيضاً على مر العصور، شغل قرائح الشعراء في القديم والحديث، ودفع النقاد إلى دراسة مظاهره، وتعيين أطواره، وتعداد ضروبه، والوقوف على معانيه وألفاظه^(٥)، ورافق الغزل الشعر العربي منذ العصر الجاهلي ودار كثير من هذا الشعر في فلكه لأنَّه "ذو ارتباط وثيق بالطبيعة الإنسانية حيث هو إحساس النفس التلقائي، ولغتها المعبَّرة عن ميلها الفطري للحبِّ في كل بيئة وزمان"^(٦)، لذلك قصد إليه الشعراء قصداً فجعلوه مقدِّمة لقصائدهم في الأغراض الأخرى، حتى أنَّ بعض مراثيهم لم تخلُ منه، وجاءوا منه بالنتفة والمقطوعة والقصيدة، "لكنَّه لم يظهر كجنس أدبي مستقل إلا في العصر الأموي"^(٧).

(١) بجاية: مدينة على ساحل البحر بين أفريقية والمغرب، بناها الناصر بن علَّناس. يُنظر: معجم البلدان: باقوت الحموي، مج ١، ص ٣٣٩.

(٢) للتوسع في مراحل حياته وتنقلاته يُنظر: نفح الطيب: ج ٤، ص ٢٥٩. والتكملة لكتاب الصلة: ج ١، ص ٤١٠. وقلائد العقيان: ص ٢٨٢. والذخيرة: ق ٣، ج ٢، ص ٦٦٦ - ٧٠٢. والمغرب: ج ٢، ص ٤٠٩. والمطرب: ص ١٦٤. والمعجب: ص ٢١١. وخريدة القصر: ص ٤١٨، ٣٠٦.

(٣) الذخيرة: ق ٢، ج ١، ص ٦٤. ونفح الطيب: المقري، ج ٤، ص ٢٥٨.

(٤) يُنظر: الذخيرة: ق ٢، ج ١، ص ٦٢، والكتبي: فوات الوفيات، جمعها وحققها محمد حجِّي، الرباط، ١٩٧٦م، ج ٤، ص ٢٧، ونفح الطيب: ٣/ ٦١٢، ٤/ ٢١٥، ٢٢٨، ٢٥٥، ٥/ ٥٣٤. والصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م، ج ٤، ص ٢٠٩.

(٥) الطباع، د عمر فاروق: مواقف في الأدب الأموي، دار القلم، بيروت، ط ١، ١٩٩١م، ص ١٤٣.

(٦) يُنظر: هذارة، د. محمد مصطفى: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعرفة الجامعية، ص ٥٢٨.

(٧) هلال، د. محمد غنيمي: النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٨٨.

إذا تتبعنا هذا الغرض عند شاعرنا وجدناه لم يخص هذا اللون الشعري بباب من أبواب شعره، وإنما تناثرت أبياته الغزلية في ثنايا قصائده المدحية والوصفية فكانت مطالع لها أو امتزجت بها، أو انحصرت في دائرة التنف والمقطوعات^(١)، ويمكن أن نعيد ذلك، إلى أن شاعرنا لم يجرب الحب ولم يقع في الغرام، إنما طرق هذا اللون من الشعر تقليدًا من تقاليد الشعر العربي، ونوعًا من إثبات ذاته ومقدرته الشعرية. فالمراجع التي ترجمت له لم تذكر شيئًا عن حياته العاطفية. وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد له بعض القصائد التي أفردا للغزل، والتي تظهر في معظمها سمات الغزل العذري وميزاته، من مثل القصيدة التي يستجدي الطبيعة كي تشاركه وتنزع عنه الحزن والأرق، وهو لا يرتجي أن يتعافى من مرض سببه جمال العيون فقال^(٢): [من المنسرح]

يا دوحه البان هل مطوَّقة	تُسعدني في البكاء والأرق؟
أصبحت في الحب آية عجيبة	متضح السير مُبهم الطرق
يجني الورى نرجس الرُّبى، وأنا	يُجنى فؤادي بنرجس الحدق
لا أرتجي أن أفيق من مرضي	من أمرضته العيون لم يُفِق

ويذكر تجدد شوقه إلى محبوبته كلما زارها، ويصف شدة معاناته من هروب النوم من عيونه بتأثير نور نظرات محبوبته، فقد حلَّت في سواد عينه وقلبه^(٣): [من مخلع البسيط]

يا شادنا حل في السواد	من لحظ عيني ومن فؤادي
وكعبه للجمال طافت	من حولها أنفاس العباد
ما زدني في الوصال حظًا	إلا غدا الشوق في ازدياد
أعشى سنا ناظريك طرقي	فليس يلتد بالرقاد

كما نراه يعاني من ألم الهجر والفرق، ويستعطف محبوبته ويشتكى من صدها له لكن من دون جدوى من ذلك، إلا أنه مع ذلك يبقى محافظًا على حبه ما دام حيًّا. قال^(٤): [من الطويل]

أذلُّ له في هجره وهو يتمي	وأسكن بالشكوى له وهو يسكت
---------------------------	---------------------------

(١) راجع الديوان الصفحات: ٣٤، ٣٥، ٤٢، ٥٠، ٦٣، ٦٤، ٦٦، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ١٣٩، ١٤٦.

(٢) ديوان ابن اللبانة: ص ٩٦.

(٣) ديوان ابن اللبانة: ص ٥٠ - ٥١.

(٤) ديوان ابن اللبانة: ص ٣٦.

لريحان ريعان الشَّيبَةِ مُنْبِتٌ

وما انبتَ حبلٌ منه إذا كان في يدي

وَيَصَوِّرُ مَرُورَ سَاعَاتِ اللَّيْلِ السَّعِيدَةِ الْهَائِغَةِ بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ عِنْدَمَا يَكُونُ مَعَ مَنْ يُحِبُّ، فَهِيَ أَشْبَهُ بِلَمْحَةِ الْبَصَرِ أَوْ غَمَزَةِ الْعَيْنِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ^(١) [مَنْ الطَّوِيلُ]

فَصَارَ مِنَ السَّرَاءِ غَمَزَةً حَاجِبٍ
فَلَمْ أَبْقِ فِيهِ فَضْلَةً لِلْكَوَاكِبِ

نَعِمْتُ بِهِ وَاللَّيْلُ مَدَّةٌ نَازِلٌ
كَأَنِّي شَرِبْتُ اللَّيْلَ فِي كَأْسِ ذِكْرِهِ

فَسَمَاتِ الْغَزْلِ الْعَذْرَى وَاضِحَةٌ فِي مَقْطُوعَاتِهِ وَنَتْفَةِ الشَّعْرِ الْغَزْلِيَّةِ، فَهُوَ يَتَغَزَّلُ بِالْحُسْنِ وَيَتَّبِعُ الْجَمَالَ، وَقَدْ حَرَصَ عَلَى عَدَمِ التَّصْرِيحِ بِاسْمِ مَحْبُوبَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ كُنْيَتِهَا، فَفَوَّادُهُ مَشْغُولٌ بِالْهَوَىٰ مَعْنَىٰ بِالْحُسْنِ بِشَكْلِ عَامٍّ، قَالَ: ^(٢) [مَنْ الطَّوِيلُ]

وَكُلُّ مُوَقِّيٍّ فِي التَّصَابِي مُوَقَّاتٌ
وَلَكِنَّ جِسْمِي مِنْهُ أَخْفَى وَأَخْفَتُْ
غَرَامِي بِهِ حَيٌّ وَصَبْرِي مَيِّتٌ

فَوَّادِي مُعْنَىٰ بِالْحُسْنِ مُعَنَّاتٌ
وَلِي نَفْسٌ يَخْفَى وَيَخْفَتْ رَقَّةٌ
وَيَمِيتُ الْأَعْضَاءَ حَيٌّ دَلَالَةٌ

وَقَدْ أَكَّدَ ذَلِكَ الْإِنْشِعَالُ بِالْهَوَىٰ فِي إِحْدَى مَقْطُوعَاتِهِ الْغَزْلِيَّةِ، حَيْثُ تَذَكَّرَ عَهْدَ الصَّبَا وَلِيَالِيَّهِ وَمَا كَانَ لَهُ فِي التَّصَابِي وَالرَّكُونِ إِلَى الْهَوَىٰ مِنْ عَوَازِلَ وَعَوَازِرَ فَقَالَ: ^(٣) [مَنْ الطَّوِيلُ]

حَيَّا الْمَزْنَ مَا أَزْوَتُهُ تِلْكَ الْمَوَاطِرُ
بَسْتَرٍ وَهَنَّ الْوَاضِحَاتُ الرِّوَاهِرُ
عَوَازِلُ إِلَّا أَهْمَنَ عَوَازِرُ
مَنْ الْعَيْشِ غَصَنَ قَاطِرُ الْمَاءِ نَاضِرُ
وَهَنَّ بِمَا مَرَّضَنَ مَيِّ أَوَامِرُ

تَذَكَّرْتُ عَهْدًا لِلصَّبَا لَوْ سَقَيْتُهُ
زَمَانًا لِيَالِيَّهِ تَكْنَفُهَا الصَّبَا
وَلِي فِي التَّصَابِي وَالرَّكُونِ إِلَى الْهَوَىٰ
رَأْيَنَ هَوَىٰ مَلَأَ الْعَنَانَ يَهْرَهُ
فَأَقْبَلَنَ يَهْيَنَ الْفَوَّادَ عَلَى الْهَوَىٰ

(١) ديوان ابن اللبَّانة: ص ٣٤.

(٢) ديوان ابن اللبَّانة: ص ٣٥ - ٣٦.

(٣) ديوان ابن اللبَّانة: ص ٦٦.

وعلى الرغم من تصريح ابن اللبّانة بانشغال فؤاده وميله إلى الهوى إلّا أنّه لم يصرّح في شعره الغزلي بالمتعة إلا نادراً، كما فعل في مقدمة قصيدته التي نظمها في مدح المعتمد بن عبّاد في قوله: ^(١) [من البسيط]

يأزُبُ رُبَّـةٍ خـدِرِ زُرْتُ مَضْـجَعَهَا من مكمني والدُّجى الغريبُ معْتَكِرُ
ضَمَمْتُهَا ضَمَّ مُشْتاقٍ إلى كِبَدي حتّى توهَّمْتُ أنّ الحليّ يَنكسِرُ
تَعَجَّبْتُ من صَنَى جِسمي فقلتُ لها: على هواكِ فقالت: عِنْدِي الحَبْرُ

ومع ذلك فلم يكن في غزله إفحاش وإسفاف وتهالك على الإباحية أو الشذوذ.

وأغلب الظنّ أنّ هذا الغزل إنّما هو مبالغة في التصوير والمجازة للمذهب الأدبي الذي شاع في الأندلس وهو الازدواجية الغزلية (الجمع بين الإباحية والتعفف) وليس تقريراً للواقع من حيث كونه حقيقة أخلاقية ماثلة في نفس الشاعر، أو تجربة حقيقية خاض غمارها. لأنّ ابن اللبّانة كما يبدو لا يصدر في ذلك الغزل عن عاطفة الحب الصادق المتلذّذ بالشهوات بقدر ما يصدر فيه عن مجرد الحب للجمال والإحساس به أينما وجد، وبما أنّ الجمال موزّع لا تحدّه صورة واحدة، فقد نزح شاعرنا إلى مفاتن الحسن والجمال فأخرجها في صورة شعرية غزلية مختلفة؛ "لأنّ مقياس الجمال في الحس والشعور مرتبط بعاملي الألفة والجدة، فالصورة الجديدة في الحسن والجمال تأسر لأوّل وهلة، ولكن بمجرد التعود عليها تفقد قدراً كبيراً من الإعجاب بها، في حين تناله صورة أخرى غير مألوفة حتّى وإن كانت أقلّ منها قيمة وجمالاً" ^(٢).

وهذا يفسّر ميل شاعرنا إلى التفنّن في الغزل والتشبيب بالغلمان، الذي أخذ يُعدّ نوعاً من التمكن البياني والقدرة على مجازة تلك الظاهرة الأدبية التي أصبح لها كيانها والتي كان يمثلها هذا النوع من النظم، بدليل أنّ النظم فيه لم يقتصر على الشعراء باختلاف مكانتهم الاجتماعية ومنازلهم الأدبية، بل طرّقه بعض من الملوك والأمراء وكثير من أفراد الطبقات الاجتماعية المختلفة "فقد جرى خيول فرسان هذا الشأن بهذا الميدان وتغنّوا في ذلك نظماً ونثراً" ^(٣) وما يؤكّد هذا انتشاره في مختلف طبقات المجتمع الأندلسي على الرغم من انتقاد بعض الكتّاب له، وذلك لأنّ البيئة الأندلسية لم تنكره ولم تستهجنه، "وإنّ من العسير في الواقع أنّ نوضح الأسباب النفسية والاجتماعية لهذه الظاهرة الغريبة، فإذا كان من الممكن أن تصوّر الحرمان الجنسي سبباً رئيساً من أسباب هذا الاتجاه في الطبقات الفقيرة، فإنّ مثل هذا السبب يفقد أهميته تماماً في الأوساط الأرستقراطية التي ابتذلت فيها المرأة - يعني الجوّاري والقيان - والتي كان انتشار حبّ الغلمان

(١) ديوان ابن اللبّانة: ص ٦٨.

(٢) مواقف في الأدب الأموي، ص ١٧٢.

(٣) الذخيرة: ق ١، م ١، ص ١٢١.

فيها لا يقلُّ عن انتشاره في غيرها من الطبقات، إنَّ لم يزد عليها^(١). وقد يكون معظم غزل ابن اللبَّانة في المذكر إنما هو مجارة للشعراء القدامى الذين كانوا يستخدمون صيغة المذكر في مخاطبة المحبوبة بدلاً من صيغة التأنيث، ومن ذلك قوله:^(٢) [من الطويل]

نِعِمْتُ بِهِ وَاللَّيْلُ مُدَّةٌ نَظِيرٌ فَصَارَ مِنَ السَّراءِ غَمَزَةً حَاجِبِ
كَأَنِّي شَرِبْتُ اللَّيْلَ فِي كَأْسِ ذَكَرِهِ فَلَمْ أَبْقِ فِيهِ قُضْلَةً لِلْكُوكَبِ

وقوله:^(٣) [من الكامل]

أَنْتَ الْمَنِيَّةُ وَالْمَنَى، فِيكَ اسْتَوَى ظَلُّ الْعِمَامَةِ وَالْهَجِيرُ الْمَحْرَقُ
لَكَ قَدْ ذَابِلَةُ الْوَشِيحِ وَلَوْ هُما لَكُنْ سِنَانُكَ أَكْحَلُ لَا أَرْقُ
وَيُقَالُ إِنَّكَ أَيْكَةٌ حَتَّى إِذَا غَنَيْتَ، قِيلَ: هُوَ الْحَمَامُ الْأَوْرَقُ
يَا مَنْ رَشَقْتُ إِلَى السَّلْوِ فَرَدَنِي سَبَقْتُ جَفَوْتُكَ كُلَّ سَهْمٍ يُرْشَقُ
لَوْ فِي يَدَي سَحَرٌ وَعَنْدِي أَخَذَةٌ لَجَعَلْتُ قَلْبَكَ بَعْضَ حَيْنٍ يَعِشَقُ
لَتَذَوَّقَ مَا قَدْ ذُقْتُ مِنْ أَلْمِ الْجَوَى وَتَرَقَّ لِي مِمَّا تَرَاهُ وَتُشْفَقُ

على أنَّ الضمير المذكر في هذه الأبيات لا يقطع بأنَّها غزلُ غلماني، فهي ربَّما كانت غزلًا في المرأة استخدم فيها الشاعر صيغة التذكير للتمويه والتضليل كما جرت العادة بذلك عند العرب.

ومن ناحية أخرى فقد كان له من الحبِّ - غرضًا فنيًا - مواقف مختلفة، فبينما نراه يميل إلى العذرية والتعفف في مقطوعته التي مطلعها:^(٤) [من الطويل]

فُوَادِي مُعَنَّى بِالْحَسَنِ مُعَنَّتٌ وَكُلُّ مُوَقَّى فِي التَّصَابِي مُوَقَّتٌ

نجد أنه أحيانًا قد خرج عن مذهبه هذا وابتعد عن العذرية كما في قوله:^(١) [من السريع]

(١) خالص، د. صلاح: إشبيلية في القرن الخامس الهجري، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥ م، ص ١٠٢.

(٢) ديوان ابن اللبَّانة: ص ٣٤.

(٣) ديوان ابن اللبَّانة: ص ٩٨ - ٩٩.

(٤) ديوان ابن اللبَّانة: ص ٣٥.

بثُّ به تحت ظلالِ المني أشتمُّ ريحاًناً واسستفُّ راح
سقاقني الخمرة من ريقه وقام لي من بردٍ بالأقحاح
يا طاعنَ الخيلِ غداة الوغى طاعنك النهْدُ فألقي السلاح
فالحدقُ السودُ إليك ارتمت فما عسى تغنيك بيضُ الصفاح

ونجده يُعلن توبته عن كل الذنوب إلا أنَّه يستثني توبته عن الوجوه الجميلة: ^(٢) [من السريع]

ما بقيت في سوى نظرة فاسقة باطنها من صلاح
الحمد لله فلائي امرؤ قد تبث إلا من وجوه الملاح

وابن اللبانة كان على نهج الشعراء القدامى في التمهيد لقصائده المدحية بالغزل ^(٣)، ونراه قد تفنن في مزج غزلياته بقصائده المدحية، ومنها القصيدة التي مدح فيها ناصر الدولة فجعل صدرها غزلاً وعجزها مدحاً ^(٤): [من الكامل]

وضحت وقد فضحت ضياء النير فكأتمما التحفت ببشرٍ مبشّر
وتبسّمت عن جوهر فحسبته ما قلدته محامدي من جوهر
وتكلّمت فكأن طيب حديثها متعت منه بطيب مسك أذفر
هزّت بنعمة لفظها نفسي كما هزّت بذكره أعالي المنبر
جادت عليّ بوصلها فكأنه جدوى يديه على المقلّ المقتر
ولثمت فاهاً فاعتقدت بأنني من كفه سوغت لثم الخنصر
سمحت بتعنيقي فقلت صنيعة سمحت علاه بها فلم تعتذر

(١) ديوان ابن اللبانة: ص ٤٤ - ٤٥.

(٢) ديوان ابن اللبانة: ص ٦٣.

(٣) راجع ديوان ابن اللبانة: ص ٢٦، ٤٣، ٦٨، ٧٤، ٧٧، ٩٨، ١١٢، ١١٥، ١٣٣.

(٤) ديوان ابن اللبانة: ص ٧٤.

ولعلّ هذه المواقف المتردّدة والآراء المختلفة تؤكّد لنا من جديد أنّ الشاعر لم يعانِ الحبّ حقيقة على الرغم من تأكيده أمر انشغاله بالهوى، ويظهر ذلك عندما يقرر أنّ تعلّقه بمن أحبّ أمرٌ مبالغ فيه وما هو إلا محض ظنون، كما في قوله: ^(١) [من الكامل]

وعلّقْته في الحبِّ علقَ مظنّةٍ أرخصتُ فيها العمرَ وهو ثمينٌ
بعثُ الحياةَ بنظرةٍ من حسنه وبدا إليّ بأنّـه المغيّبـونُ

وقد أكثر ابن اللبّانة من التعابير التقليدية في نسيبه فتعجّى بسلطان الجمال وتحدّث عن الأوصاف التي تداولها الشعراء القدامى من مثل الحديث عن العيون والحدود والخيال والجفون والألحاح والعدار والصبابة وغيرها، وطرق مفردات قاموس الحبّ والغزل فأتى بألفاظ الطيف والخيال والأرق والسهد والوصل واللقاء والرقب والعاذل والسلوان والصبر.

مما سبق يتبين لنا أن شاعرنا كان يحدّق في المفاتن الحسية والمحسن الجمالية فيصدر عنها نظماً غزلياً لا يدلّ على أنّه فاض عن نفسٍ ملأ الحبّ جوانبها، وملك الفنّ أقطارها، ففاضت مشاعرها بعاطفة مشبوبة تصور معانها ولواعج حبّها وحرقة جواها، في شيءٍ من رهافة الحسن ورقة اللفظ التي تُثير في المتلقي إحساساتٍ جمالية، تجعله يشارك الشاعر تجربته وينفعل بانفعالاته، ولكنّه يمثّل شعراً صنعه صاحبه صناعة، جرياً على عادة الشعراء، فكان الغزل مجالاً لإبداعه الفنيّ ومحاولة لإثبات قدرته الشعرية.

الغزل في موشحاته:

يُعتبر فن الموشح فناً أندلسياً أصيلاً نشأ وازدهر في ربوع الأندلس، ويُعتبر ابن اللبّانة من الوشّاحين البارعين في عصر ملوك الطوائف، إذ هو من أعلام القرن الخامس الهجري عصر ازدهار الموشح واتّسع ميدانه وتعدّد أغراضه، وقد ذكر الصفدي شاعرنا بين كبار الوشّاحين في قوله: "من سبق إلى التوشيح، وسبق إلى الغاية من أهل المغرب جماعة وهم: عبادة بن ماء السماء، وأبو بكر محمد بن عبادة القرّاز، وعبادة بن محمد بن عبادة الأقرع. ويليهما في الإجادة أبو العباس التطيلي، وأبو بكر بن بقي، وأبو بكر الأبيض الشاعر، وابن عبد ربّه صاحب كتاب العقد، وأبو بكر بن اللبّانة، وأبو عبد الله محمد بن رافع رأسه، وأبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري"^(٢) كما وصفه لسان الدين بن الخطيب في كتابه جيش التوشيح بقوله: "الوزير أبو بكر بن عيسى الداني المعروف بابن اللبّانة بهرت بدائعها، وظهرت روائعها، وطلع من جوّ الإحسان بدرّاً، وجلّ فيه قدرّاً، راقت ألفاظه ومعانيه، [...] كلامه ومبانيه، فجلا من التوشيح

(١) ديوان ابن اللبّانة: ص ٦٦.

(٢) الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك، توشيح التوشيح، تحقيق: ألبير حبيب مطلق، دار الثقافة، بيروت، ص ٣١.

الرائق مائلي سوراً، واجتليت محاسنه صوراً...وهاك من رائق توشيحه ما يشهد بسبقه، ويريك في جو الإبداع وميض برقه" (١).

وقد توزعت موشحات ابن اللبّانة في أمّهات الكتب والمصادر مثل: جيش التوشيح (٢)، والمغرب في حلى المغرب (٣)، وتوشيح التوشيح (٤).

أمّا فيما يخصّ الغزل فيها فإنّ هذا الغرض يشغل معظم موشحات ابن اللبّانة، فهو غالباً ما يتخذ تمهيداً للدخول إلى المدح أو يجعله خاتمة له، كما كان يفعل في بعض قصائده الشعرية، وقد ورد مستقلاً في بعض موشحاته. ونسج موشحاته بأسلوب رقيق عفيف مبتعداً فيه عن الفحش والابتذال فكانت ملامح الغزل العذري - بشكل عام - واضحة في موشحاته.

ومن الموشحات التي بدأها بالغزل وختمها به موشحته التي مدح بها بني عبّاد: (٥)

هم بالخيل	ودن بالوجد	وحثّ الأدمع
آثر الركاب	فحال البعد	حال التفجع

ولتطو منك على شجون	قلب يُعذّب من وجهين
بطول صدّ وطول بئ	ولتسق من عبرات العين

عهد الوصال	بمثل العهد	ذوى فـاينغ
صنع السحاب	بروض الورد	ابان يهمغ

إن كنت مغرى بمن تمواه	فصل سراك إلى لقياه
وقل له سائلاً رحماه	يا من تضوع من رياه

شذا الغزال	بمثل الند	بالله مـغ
------------	-----------	-----------

(١) ابن الخطيب، لسان الدين: جيش التوشيح، تحقيق وتقديم: هلال ناجي مكتبة المنار، تونس، بلا سنة النشر ورقم الطبعة. ص ٥٩.

(٢) أورد ابن الخطيب عشر موشحات، ص ٥٩ وما بعدها.

(٣) ابن سعيد المغربي: ج ٢، ص ٤١٤.

(٤) الصفدي: ص ١٣١.

(٥) جيش التوشيح: ص ٦٦ - ٦٨.

ممن الإياب رهين الود بالوعد يقنع

وختمها بقوله:

وغادة أغرث الأشنفا بطير حسن هواها عافا
فأمنت له الذي خافا فكان من شذوها إذ وافي

ميسل دلال ومعك نهي طيرا مروغ
وارشف رصاب وقبل خدي إياك تجزع

ومن النوع الثاني الذي يكون فيه الغزل مستقلاً موشَّحته التي مطلعها: (١)

للمدح إذا تقطر في الخد أسطر تحفظ الهوى ظاهر منها النواظر

سر لوعتي يديبه من حوت (٢) عبده
ليس لي بما أفديبه والقلب عنده
لو شمت رياء فينه أو شمت خده

كنت أنشق العنبر من ثغر جوهري وأرى سنا زاهري من الأزاهري

غصن بانة هرة صبا ولبيبي
ينثني على عرة لها أهوون
لي بخدي منة لي ولي منة وون

فإذا جلا منظر فالعيش أخضر وإذا رنا ناظر فالموث حاضر

رشا من الأنس لا يسأل
حل رتبة الشمس فمما يسأل
زارني على يأس منة الحيال

(١) جيش التوشيح: ص ٦٨ - ٦٩.

(٢) كذا في الأصل، وكلمة ((صرت)) أنسب للمعنى.

وبعد، فيبدو من خلال هذه الدراسة لشعر ابن اللبّانة الغزلي وموشحاته، أنّه كان يصدر عن فنّ الشاعر لا عن قلبه، وعن رغبته في السير على خطى المتقدّمين لا عن رغبته في التعبير عمّا يجيش في صدره من عاطفة صادقة سامية. لأنّ الغزل - مثل كلّ غرض يوجب المعاناة - قد استنفدت معانيه، وقلّ أن يأتي الشاعر فيه بجديد ما لم يكن محبّاً صادق الحبّ ومنفعلاً به، فقد ظهر في تلك المقطوعات والمقدّمات الغزلية في قصائده المدحجية مذهبه في الحبّ، معبراً فيه عن إحساسه بالجمال أينما وُجد باعتدال في التشبيب، وبُعدٍ عن الفحش والمجون، حتّى يحثّل إليك أنّه من أصحاب الحبّ العذري. وبما أنّ شاعرنا - كما يبدو لنا - كان بعيداً عن الحبّ والمعاناة فيه، لذا فإنّ شعره الغزلي أكثر تقليدية من سائر أشعاره، وقد جاء معظمه نسيباً في مطالع قصائده المدحجية وأبياته الوصفية، وقليلة هي القصائد أو الأبيات أو النثف التي خلت منه أو تخللتها بعض من صوره ومعانيه، ومرجع ذلك أنّه كان ذا مكانة أدبية مدحجية جعلته لا يهتم بأن يجعل الغزل باباً من أبواب شعره وإنّما جعله صناعة متعمدة يُراد بها إثبات ذاته ومقدرته الشعرية لدى ملوك الطوائف الشعراء والعلماء.

المبحث الثاني: سمات الغزل العذري الأندلسي

هناك عدد من السمات التي دار في فلكها الغزل العذري، تلك السمات والمظاهر تستوقف الذهن، وتؤكد أنّ هؤلاء الشعراء العذريين "كانوا يصدرون عن حس مشترك وينهلون من موارد متشابهة ويذهبون إلى غاية واحدة هي أن يكون هذا الغزل شاهداً عليهم ومصوراً لهم، تتحد فيه معالمهم وتتجسّم فيه خواطرهم وتتجسّد آمالهم وآلامهم وتتنضح شخوصهم، بما تنطوي عليه من شتى الانفعالات والخواطر، وفيه تتشكل قيمهم التعبيرية وملكاتهم الإبداعية والجمالية وأنماطهم الأسلوبية"^(١)، تلك السمات ليست كثيرة نظراً لعدم تنوع التجربة العذريّة، وعدم تعدد مواقفها^(٢) فضلاً عن التطابق بين تجارب الشعراء العذريّين العاطفية والشعرية إلى حد بعيد.

وقد تناول الدارسون قديماً وحديثاً هذه السمات وصفاً وتحليلاً وتعليلاً ولم يكن ثمة اتفاق بينهم في النظر إلى هذه السمات في أغلب الأحوال نظراً لعمق الظاهرة وتداخل قضاياها، وقد حاولت أن أرصد أهم السمات الموضوعية التي استخلصها الدارسون من الظاهرة على ما فيها من تداخل^(٣)، ومن هذه السمات: "العفة العذريّة" و " العذرية والزمن" و "العاطفة العذريّة" و "توحيد المحبوب".

وسأقوم بدراسة تلك السمات وسأتابع النقاط التي اتفق فيها شعر الغزل العذري الأندلسي مع نظيره المشرقي.

أولاً: العفة العذريّة:

لعل أهم وأبرز ما يمكن أن يبرز واضحاً عند التحدث عن عاطفة الحب ذلك النهج الروحي الذي انتهجه العشاق والمحبون، والذي تعد العفة أوضح سماته وأبرز مظاهره، ولهذا كان الحديث عن العفة هو الحديث الغالب عليهم، فقد تحدث كل الذين ألفوا في عاطفة الحب من العرب كثيراً عن عفاف المحبين، بل أفردوا لذلك أبواباً خاصة، فهذا محمد بن داود الأصفهاني صاحب كتاب (الزهرة) يفرد باباً لهذه المسألة أسماه (من كان ظريفاً فليكن عفيفاً) جاء فيه: "ولو لم تكن عفة التعابير عن الأدناس وتحاميهما ما ينكر في عرف كافة الناصمحرماً في الشرائع، ولا مستقبلاً في الطبائع لكان الواجب على كل واحد منهما تركه إبقاء وده عند صاحبه وإبقاء على ود صاحبه عنده"^(٤) وقد تحدث ابن القيم الجوزية

(١) قضية الحب العذري في شعر بني أمية، العربي حسن درويش، مكتبة النهضة المصرية، بلا تاريخ، ص ٩٣.

(٢) ينظر: في الشعر الإسلامي والأموي: ١٣٤.

(٣) تجد هذه السمات في الكتب التي تناولت موضوع الغزل العذري مثل: "الحب العذري نشأته وتطوره" أحمد عبد الستار الجوّاري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦. و " الغزل العذري دراسة في الحب المقموع " ليوسف اليوسف، نشر دار الحقائق الجزائر الطبعة الثانية ١٩٨٢ م. و " قضية الحب العذري في شعر بني أمية " للعربي حسن درويش.

(٤) الزهرة: ١١٧/١.

عن عفاف المحبين مع أحبابهم، وعن العفة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وأورد الكثير من قصص المحبين شواهد ناصعة عن العفاف في الحب^(١).

أما الآراء التي تحدثت عن العفة سمةً من سمات الغزل العذري، فإن من أشهرها تلك الآراء التي أعادت العفة العذرية إلى أسباب دينية وربطت ربطاً مباشراً بين قيم الدين الحنيف وأخلاق العاشق العذري، فمنهم من ذهب إلى أن الإسلام زواج بين الحب والعفة فحصى عاطفة الحب بهذه العفة وفهمه في نطاقها، فكانت له الإطار الاجتماعي الذي لا بد منه، ويرى " أن الحب العذري قد انطلق من أسرار الغريزة ليعيش في آفاق العفة، فالعذريون هم أولئك الذين دعاهم الجمال وأغرتهم اللذائذ وثارَت في نفوسهم الشهوات ولكنهم اعتقوا وانصرفوا عنها وتحصنوا بالعفة التي تعد أولى صفات الحب العذري وأبرز علاماته"^(٢). ومنهم من لم يربط بينها وبين الإسلام ربطاً مباشراً، حيث ذهب إلى أن الحب العذري "هو حب خالص من شوائب الدنس والرجس وهو حب طاهر شريف لا يعرف مخزيات الماتم ولا مندييات الأهواء"^(٣) ولكن لم يذهب إلى أن "أصحاب تلك العواطف كانوا على درجة واحدة من الطهر والسمو والروحانية، ولكن من المؤكد أنهم عاونوا على إمداد الإنسانية بشمائل رفيعة"^(٤).

ويرى غيرهم أن الحب العذري قد اشتهر بالعفة، وبعدم الاحتفال باللذة والتعلق بالجسد، وأن الحب العذري امتاز بأنه مثالي لا غاية له في المحبوب ولا غرض يسعى إليه، وإن كل هذا قد جاء من أثر الدين^(٥). وهناك الكثير من الدراسات العامة التي نعتت الغزل العذري بالعفة وأعادتها إلى أثر الدين الإسلامي في نفوس العاشقين العذريين^(٦).

بيد أن هناك من رفض هذا الربط المباشر بين القيم الإسلامية وعفة العذريين في الحب^(٧)، فالعفة في تقديرهم ليست انعكاساً للدين وقيمه ولكنها جاءت موازية له. لقد ألح الطاهر ليبب على إثبات عدم العلاقة المباشرة بين العفة العذرية والإسلام ديناً، ورأى أن ثمة توازياً بين القيم الإسلامية والعفة العذرية وليس بينهما علاقة السبب بالمسبب.^(٨) فقد أرجع الباحث العفة العذرية إلى الجمال، فهو الذي حمل العذريين على العفاف، والعفاف عنده أيضاً ينشأ من شدة الحب، إنه احترام مفرط للجمال ونتيجة للحرمان ومنع الزواج ورفع الحبيبة إلى مستوى المثال، والعفة أمر ثانوي أو عرضي، فضلاً عن أنها رفض للعملية الجنسية في ظل وجود الرغبة فيها. لقد قرر مراراً أن العفة العذرية ليست نقلاً

(١) ينظر: روضة المحبين: ٢٨٣، ٢٨٧، ٣٠١.

(٢) ينظر: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام: ٢٨٧، ٢٨٨.

(٣) العشاق الثلاثة: ١١.

(٤) المصدر السابق: ١٨.

(٥) الجوّاري، أحمد عبد الستار: الحب العذري، نشأته وتطوره، ص ٥١.

(٦) ينظر مثلاً: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام: ٢٨.

(٧) للتوسع يمكن مراجعة رأي الدكتور يوسف اليوسف في كتابه " الغزل العذري دراسة في الحب المقموع، ص ٣٢.

(٨) ينظر: سوسيولوجيا الغزل العربي: ٧٤.

مباشراً لشعور ديني ولا تعبيراً عن الورع، واستدل على ذلك بأن الأعراب قد عُرفوا بالعفة في الحب سواء قبل الإسلام أو بعده ومضى على أنه ليس بالإمكان الحديث عن عفة ما ولكن الحديث عن رغبة غير مشبعة^(١).

ونجد العقد قد جعل العفة سمة فطرية في النفس الإنسانية العاشقة وهو بهذا يلتقي مع بعض الذين نظروا للحب في التراث العربي^(٢). يقول العقد: "ونحسب أن المنعة في العشق والاستعصام في العلاقات بين الرجال والنساء مصلحة طبيعية نوعية بل مصلحة فيزيولوجية كما نستطيع أن نسميها في العصر الحديث وليس بمصلحة اجتماعية في القبيلة أو مصلحة دينية يوجبها الدين وحده ولا يوجبها شيء غيره على اتباعه"^(٣). والعفة من آداب العشق والاستسلام للشهوات ضعف لا يشرح صاحبه للبقاء ولا يدل على استحقاقه للحب والإيثار، وقد كان الاستعصام في العلاقات ألزم في مجتمع البادية^(٤).

من خلال آراء النقاد والدارسين آنفة الذكر نرى أنّ العفة العذريّة كانت نوعاً من الاستعصام الذي تفرضه العلاقة السوية بين الرجل والمرأة، إذ إن علاقة العشق غير علاقة اللهو والمجون والفحش، ولا ننكر أثر الإسلام في عفة العذريّين ضمن ما ذكرنا من أسباب.

ومن ناحية أخرى فالمستطلع لأشعار العذريين يرى صورة صادقة عن غزلهم الذي يصدر عن نفوس عفيفة وعاطفة راشدة وروح شقافة، بعيدة عن الرغبات الجنسية الدنيئة وعن تبدّل المتماجنين، تزخر بخشوع وخضوع وشكوى وأنين وتضحية وبكاء ومناجاة وصلوات في محراب الحب، وغيرها من المشاعر والنوازع التي تنبض بالعفة وتشهد على سمو تلك العاطفة ونقاها وصفائها. وقد تحدث الشعر عن هذه العفة بالتصريح حيناً وبالتلميح أحياناً، وتكفي هذه الومضات التي توضح لنا نزوع العذريين إلى العفة وحرصهم عليها، منها قول جميل:^(٥) [من المنسرح]

لا والذي تسجد الجباه له	ما لي بما دُونَ ثوبها حَيْرُ
ولا يفيها، ولا هممتُ به	ما كان إلا الحديث والنَّظَرُ

وقول مجنون ليلى:^(٦) [من الطويل]

(١) ينظر: سوسيولوجيا الغزل العربي: ٧٤، ٨٠، ٧٥، ١١٦، ١١٨، ١٢٤.

(٢) ينظر: الزهرة: ١١٧/١.

(٣) جميل بثينة: ٦٢.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٦٣.

(٥) ديوان جميل: ص ٧٩.

(٦) ديوان مجنون ليلى ص ١٤٤.

أُحِبُّكَ يَا لَيْلَى عَلَى غَيْرِ رَيْبَةٍ

وَمَا خَيْرُ حُبٍّ لَا تَعِفُّ صَمَائِرُهُ

أما في الأندلس فقد أكد شعراؤها وأدباؤها على أهمية العفة في الغزل فهذا ابن حزم صاحب (طوق الحمامة) نراه قد أفرد باباً لموضوع العفاف أسماه (باب فضل التعفف)^(١) هذا الكتاب "كان له الأثر الكبير في تقوية وتعزيز هذا الاتجاه العفيف، فقد تعرض بالتحليل لهذا اللون من الغزل ودعا إليه وشجع عليه " ^(٢)، وقد صرح شعراء الأندلس بالعفة تصريحاً مباشراً كقول ابن فرج الجياني^(٣): [من الوافر]

وطائفة الوصال صددتُ عنها	وما الشيطانُ فيها بالمطاع
بدتُ في الليل سافرةً فباتت	دياجي الليل سافرةً القناع
وما من لحظةٍ إلا وفيها	إلى فتن القلوب لها دواعي
فملكتُ الهوى جمحات أمري	لأجري في العفاف على طباعي

فهو هنا يصرح بأنه هو من صد عنها ولم يطع الشيطان في الانزلاق بالمحرمات، فهي طوع يديه، لكنه عَفَّ عنها لأن العفاف من طباعه، ويؤكد على عفافه حتى في تعامله مع الطيف الذي يراوده في المنام حين يقول^(٤): [من الوافر]

بأيهمما أنا في الشكرِ بادي	بشكرِ الطيفِ أم شكرِ الرقادِ
سرى فازداد لي أملِي ولكن	عَفَفْتُ فلم أنل منه مرادي
وما في النوم من حرجٍ ولكن	جريتُ مع العفافِ على اعتيادي

وعلى هذا النحو نجد العفة ظاهرة في أشعار شعراء الأندلس كابن زيدون وابن الحداد الوادي آشي والمعتمد بن عباد وعبد الرحمن بن مقانا وغيرهم.

ونحن نتفق مع ابن داوود الأصفهاني صاحب كتاب (الزهرة) الذي يقرر أن العفة الحقيقية تتحقق عندما يعف المرء عن إتيان المنكر عندما يُتاح له، فقد أورد في باب (من كان ظريفاً فليكن عفيفاً) قولاً لأحد الشعراء وعلّق عليه فقال: "وقال آخر: [من الطويل]

(١) ينظر: طوق الحمامة: ١٩٣ وما بعدها.

(٢) ينظر: الشعر في ظل بني عباد، محمد مجيد السعيد، ط ١، ١٩٧٢ م، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٣) نفح الطيب: ج ٣، ص ٤٣٧.

(٤) نفح الطيب: ج ٣، ص ٤٣٧.

ويخشونَ في ليلَى عليٍّ ولمْ أنلْ
سوى أنْ محالو تشاءُ أقلَّها
ألا حبَّذا أطالُ ليلَى على البلى
وما يتمادى العهدُ إلا تجددتْ

مع العذلِ مِنْ ليلَى حراماً ولا حلاً
ولو تبتغي ظلاً لكان لها ظلاً
وما بذلتْ لي من نوالٍ وإنْ قلاً
مودُّها عندي وإنْ زعمتْ أن لا

ولعمري إنَّ هذا من نفيس الكلام قد جمع لفظاً فصيحاً ومعنى صحيحاً غير أنَّه لم يخبر بالعلَّة التي من أجلها لم ينل حراماً ولا حلالاً فيُقضى له على حسب ذلك، لأنَّ إن منعه من إتيان المنكر عجزه عنه لم يُشكر، وإنَّما يُستظرف مَنْ قدر على ما يهواه فتعقَّف " (١)

ويؤكد ابن الزقاق البنسني على عفة محبوبته وعصمتها وبراءتها بالدليل العقلي من خلال قصَّة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز، واعتصامه من الوقوع في الفاحشة وتبرئة الله له، وقد استوحى الشاعر هذه القصة ووظفها في قوله: (٢) [من الطويل]

بأبي وغيرُ أبي أغنَّ مَهْفَهْفُ
لبسَ الفؤادَ ومزَّقته جفونُهُ

مهضومُ ما خلقَ الوشاح خميضُهُ
فأتى كيوسفَ حينَ قُدَّ قَمِيصُهُ

فإذا كان قد قميص يوسف من دبر دليلاً مادياً على براءته، وحجة واضحة على عفته وعصمته، فإن الشاعر يتخذ الموقف ذاته ليؤكد عفة محبوبته وطهرها. (٣)

وخلاصة القول: لقد جاء الغزل العذري - في المشرق وفي الأندلس - عفيفاً روحياً خالصاً من الشوائب الجسدية والإشارات المادية المحسوسة، لهذا كانت العفة من أبرز الظواهر التي تستوقف الباحث في شعر العذريين أو في غزلهم الذي عبَّر عن مشاعرهم المشتركة وترجم أحاسيسهم الصادقة، وهي أي العفة كذلك قادمة من شدة الحب واحترام الجمال والارتقاء بالمرأة إلى مستوى عالٍ من التقدير والإجلال بحكم مكانتها في المجتمع العربي، وبحكم جمالها الروحي والمادي.

ثانياً: الحب العذري والزمن:

(١) يُنظر: الزهرة ١ / ١٢٨. والأبيات لمجنون ليلي. ديوان مجنون ليلي، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مكتبة مصر، القاهرة: ١٨٣

(٢) ديوان ابن الزقاق البنسني، تحقيق عفيفة محمود ديراني، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص ١٩٦

(٣) استيحاء التراث في الشعر الأندلسي، د. إبراهيم منصور محمد الياسين، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط ١، ٢٠٠٦، ص ٩٦.

لقد تحدث الباحثون عن (الديمومة) سمةً من سمات العشق تحت مسميات كثيرة، فهذا ابن داوود يفرّد باباً أسماه "قل من سلا إلا غلبه الهوى"^(١) يذكر فيه من أحب حباً حقيقياً، ثم حاول السلو لعارض ما في العلاقة، فإنه سرعان ما يعود إلى ديدنه السابق في العشق.

ويفرّد المؤلف نفسه باباً آخر بعنوان "من قدم هواه قوي أساه"^(٢) يذكر فيه أن من تدرج في المحبة تدرجاً طبيعياً من الأدنى إلى الأعلى حتى ينتهي إلى بعض الأحوال الصعاب، كان زوال المحبة - إن زالت - بطيئاً، أما الذي لا يتدرج في الحب تدرجاً طبيعياً، فإن محبته معرضة للزوال حتى وإن وصل إلى مرحلة متقدمة من مراحل العشق، وهكذا هي طبيعة الأشياء عادة، والعشق العذريّ هو من ذلك النوع الذي تدرج فيه أصحابه تدرجاً إلى أن وصلوا إلى أعلى الدرجات، فقد بدأ ألفه ومودة في الصبا ثم نما مع العمر فصار إلى ما صار إليه من هيام وجنون ليس إلى السلو منه سبيل^(٣). يقول المجنون مثلاً:^(٤) [من الطويل]

غرامي لكم يزداد إلا تاديا

تمر الليالي والشهور ولا أرى

والديمومة تعني: أن هذا النوع من الحب لا يفنى إلا بفناء المحب نفسه وموته، فهو حب صادق يعيش في خلجات القلب. إنني هنا لا أقصد علاقة الحب العذريّ بالزمن الذي احتضن الشعر العذريّ. فذلك زمن خارجي محدود وهو ما يُسمى العصر، وإنما أقصد زمن الشاعر نفسه أي عمره، وهو الزمن المجرد الذي يعيشه كل إنسان، ثم إن موضوع علاقة الحب العذريّ بالزمن يتطرق إلى علاقة هذا الحب بالموت، ونظرة الشاعر العذريّ إلى الحياة والفناء، والإحساس بهروب الزمن والخوف من الفراق والهجر.

والحق أن ديمومة الحب العذريّ خلال حياة الشاعر العاشق من أهم مظاهر علاقة الحب العذريّ بالزمن، حتى غدت الديمومة خاصية من خصائص هذا الحب وموضوعاً فريداً من موضوعات شعره، لأنّ " النفوس البشرية سواء في تعرضها للحب، ولكن بعض الحب عاطفة مؤقتة لا تلبث أن تخمد وتبرد وتزول كما يزول لهب القش بعد اتقاد وضيء وسطوع، وبعض الحب عاطفة خالدة لا ينال منها إعراض أو ملل أو قسوة وإنما تظل دائماً متوهجة لها في كل حيز من عالم الحب الداخلي جرس لا ينقطع وحنين لا يهدأ، والحب العذريّ من هذا النوع وأنه لذلك يتصف إلى جانب العفة بالديمومة"^(٥). فالعاشق العذريّ مولع بمحبوبته "وتمضي به الأعوام لا ينساها - أي المحبوبة - بل يذكرها في يقظته

(١) الزهرة: ٢٣٤/١.

(٢) المصدر السابق ٤٣٦/١.

(٣) المصدر السابق ٤٣٦ / ١ - ٤٣٧.

(٤) ديوان مجنون ليلى : ٣٥

(٥) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام: ٢٨٧.

ويحلم بها في نومه، وقد يصبح كهلاً أو يصير إلى الشيخوخة ولكن حبها يظل شاباً في قلبه لا يؤثر فيه الزمن ولا يرقى إليه السلوان حتى ليظل يغشى عليه، بل حتى ليجن أحياناً جنوناً^(١).

فيوم الحب ليس كالأيام العادية، فهو يستطيل ليصبح شهراً، والشهر يستطيل ليصبح دهرًا، على حد تعبير ابن عبد ربه الأندلسي^(٢): [من الكامل]

يَوْمُ الْحُبِّ لَطُولُهُ شَهْرٌ وَالشَّهْرُ يُحْسِبُ أَنَّهُ دَهْرٌ

والزمن في الحب العذري يقصر أو يطول بحسب لقاء الشاعر بحبيبته أو غيابها عنه لا بحسب طوله الرياضي أو قصره، وقيمة الزمن ليست في امتداده العددي بل في عمقه، ولهذا قد تكون اللحظة أثمن وأعلى من الدهر كله، إن كانت حضوراً مع الحبيبة وتكون أطول من الشهور إن كانت غياباً عنها. كما نرى العشاق في خوف دائم من الفراق والبعد عن محبوباتهم، " وخوف الفراق إنما يستظهر في الأكثر على العشاق والمتممين، أولئك الذين وجدوا لذة الإسعاد من الأحبة واستشعروا الأُنس بالقرب منهم، فهم من زوالهم على حذر وهم من فراقهم على وجل " ^(٣)

ومن هنا نخلص إلى أن علاقة الحب العذري بالزمن والموت والهجر والفراق علاقة فريدة وأن الزمن العذري غير الزمن الاعتيادي الرياضي بل هو الزمن النفسي حسب مفهوم الكيس كريس^(٤) وأن الديمومة صفة من صفات الحب العذري، وموضوع من موضوعات غزله.

على أن ديمومة الحب لدى العذريين لا تنبع دائماً من رغبتهم وإرادتهم، فهم كثيراً ما كانوا يحاولون السلو والنسيان والتخلص من آلام العشق المبرحة وكثيراً ما كانوا يزجرون قلوبهم عن التماذي في العشق، وينصحون لها بأن تسلو وتنسى وتفريق من هيامها، ولكن دونما جدوى^(٥) كما أن الرغبة في السلو والبراء من العشق وزجر القلوب المتماذية فيه ليس ديدنهم الدائم بل كانوا كثيراً أيضاً ما يستلذون تباريح العشق ويطلبون منها المزيد ولا يريدون منه خلاصاً، وهذا ينسجم تماماً مع ما ذهب إليه ابن حزم إذ قال: "الحب أعزك الله داء عياء وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ومقام مستلذ وعلة

(١) العصر الإسلامي: ٣٦٠.

(٢) ديوان ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: محمد ألتونجي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى ١٩٩٣ م، المقطوعة رقم

(١٠٩) ص ٩٣.

(٣) الزهرة: ص ١٦١

(٤) ينظر: الإنسان ذلك المجهول: ١٩٠.

(٥) ينظر: اتجاهات الشعر في العصر الأموي: ٤٥٣.

مشتاة لا يود سليمها البرء ولا يتمنى عليها الإفاقة"^(١) ولاغرو من هذا التناقض الظاهر بين الرغبة عن العشق والرغبة فيه فعاطفة العشق متقلبة، حسب ما يعرض لها من مواقف وأحوال.

وبذلك يتفق الغزل العذري الأندلسي مع نظيره المشرقي بهذه السمة أيضاً، وذلك عند الشعراء الذين اتخذوا الحب العذري مذهباً لهم في الحياة والشعر، أما الشعراء الذين كانت العذرية صبغة غالبية على أشعارهم أو كانت الأشعار العذرية مجالاً لإبداعهم وإثبات ذواتهم، فلم نجد في أشعارهم خوفاً أو حرصاً على استمرار حبهم لمحبوباتهم، فوجدهم يتنقلون بين محبوبة وأخرى، لا هدف عندهم في تلك الأشعار العذرية إلا إثبات ذواتهم ومقدرتهم الشعرية.

ثالثاً العاطفة العذرية:

العاطفة العذرية من أشد ألوان عواطف الحب قوة وحرارة، فإذا كان العلماء قد وضعوا للعشق أسماء ومراتب بحسب العاطفة، فإن العشق العذري يأتي في أعلى هذه الأسماء والمراتب، فأعلى هذه المراتب عند ابن داوود هو التتيم، فالوله، والعاشق المتيم هو الذي استعبده الحب وذهب به كل مذهب، والعاشق الوله هو الذي يتعطل تمييزه وتصدر أفعاله عن غير وعي أو إرادة، ويفقد ميزان المنطق والعقل ويحتل عنده التفكير^(٢).

أما أعلاها عند ابن حزم فهو الشغف، وهو الذي يقود العاشق إلى الامتناع عن النوم والأكل والشرب، إلا ما يبقيه حياً، وقد يؤدي الشغف بصاحبه إلى المرض والوسوسة أو الموت^(٣).

لقد احتفل الغزل العذري بالتعبير عن العاطفة وشكلت موضوعاً رئيساً من موضوعات الغزل، فالعاطفة المشبوبة خاصية من خواص هذا الغزل^(٤). فقد اتصفت هذه العاطفة عند الشعراء العذريين بالقوة والحرارة و" لفرط تمكن تلك العاطفة منهم وسيطرتها عليهم سموها وقدسوها وجعلوا منها شغلهم الشاغل بل اتخذوها نوعاً من العبادة قد يطغى أحياناً على الشعائر الدينية"^(٥).

الشعر العذري كان هدفه الرئيس هو التعبير عن هذه العاطفة، لأنه لا يقص أحداً وإنما يتحدث غالباً عن مواجد النفس وآمالها وآلامها، وكل ما يتعلق بالمعاني الروحية لعاطفة الحب^(٦)، فموضوع الغزل كان في الجاهلية جسم المرأة

(١) طوق الحمامة: ٢٦، ٢٧.

(٢) ينظر: الزهرة: ٦٠/١، ٦١.

(٣) ينظر: طوق الحمامة: ١٤٥، ١٤٦.

(٤) ينظر: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام: ٢٨٧، ٢٨٨.

(٥) محمد غنيمي هلال، الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، دار النهضة، مصر، الطبعة الثانية، ص: ٣٥.

(٦) ينظر: ديوان كثير عزة، دار صادر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥ م، المقدمة ص ٢١.

فأصبح في الإسلام نفس العاشق^(١)، والشعر العذري "يهتم بالروح أكثر مما يهتم بالصورة الجسدية، لذلك لا تظهر فيه المرأة كثيراً فمدار التعبير فيه على تباريح العشق وآلامه"^(٢)، وتجسيد هذا الألم لا يمكن أن يصدر إلا عن التجربة التي يعاني منها الشاعر.

فلم يكن الغزل العذري ترفاً ذهنياً أو عاطفياً أو أدبياً ولكن عبر عن قضية اجتماعية ونفسية وتاريخية لا تقل أهمية عن أية قضية سياسية تبناها الشعر، وهذا ما يميز الغزل العذري عن سواه من ألوان الغزل التي تتنحى نحو التقليد والترف العاطفي وفلسفة الحب من خارجه. وتعددت ألوان هذه العاطفة ومظاهرها من مثل: الجد والألم والحرمان واليأس والحزن والشكوى والصدق.

فالجد من أهم سمات العاطفة العذرية، فالعشق عند ابن الحداد لم يكن فناً من اللهو أو العبث وإنما كان محنة أصيب بها قلبه الجريء، وقد طال بلاؤه بمحنة العشق، وأصحاب هذه المدرسة (المدرسة العذرية) عرفوا "بعفة اللسان وصدق الصباية، وبأن غزلهم لا تغلب فيه النغمة المرحية التي تغلب في شعر الحضريين، وإنما تغلب فيه نغمة حزينة، وفيه تغليب لكل أنواع المشاعر التي تنشأ عن علاقة الرجل بالمرأة علاقة كريمة"^(٣). كما شاعت فيه عبارات الوجد وشكوى الحرمان مع غلبة الهوى، وصدق الصباية في العشق وأثر الحب في اعتلال الجسد، والشكوى من صد الحبيب. ويعدُّ اليأس مظهراً أساسياً من مظاهر العاطفة العذرية فهو "ظاهرة عامة في ذلك التيار الروحاني"^(٤).

والحق أن مأساة العذريين تكمن في تذبذب حياتهم بين الرجاء واليأس إذ لم يتحقق ما يرجونه وينشدونه، ولم يضمنوا يأساً خالصاً من الوصول إليه ليكون مثل هذا طريقاً إلى السلو من تجارب حبه العاصفة، إلى درجة تمنى الموت لأنه الوسيلة التي يرجون من ورائها اللقاء ولو في عالم الخلود، حتى ليرضى ويسعد الشاعر العاشق بزيارة طيف المحبوب، يقول ابن عبد ربه: ^(٥) [من الوافر]

سَرَى طَيْفُ الْحَبِيبِ عَلَى الْبَعَادِ	لِيُصْلِحَ بَيْنَ عَيْنِي وَالرُّقَادِ
حَيْثُ مَا زَارَنِي لَمْ يَلْمَأْ رَأْيِي	عَدَّتْني عَنْ زيارَتِهِ عَوَادِي
يُؤَاوِلُنِي عَلَى الْمَجْرَانِ مِنْهُ	وَيُذْنِبُنِي عَلَى طُولِ الْبَعَادِ

وهم قد يلهجون باليأس في شعرهم بين الحين والآخر، فنرى أحدهم يدعو على محبوبته أن يصيبها الله ما أصابه كي تذوق طعم العذاب يقول ابن عبد ربه: ^(٦) [من مخلع البسيط]

(١) ينظر: طه حسين، حديث الأربعة، دار المعارف بمصر، ٢٢٦/١.

(٢) الصورة في الشعر العربي: ١٠٧.

(٣) تاريخ الشعر العربي: ١٦٦.

(٤) يُنظر: الحب العذري نشأته وتطوره: ١٠٠، ١٠١.

(٥) ديوان ابن عبد ربه: المقطوعة رقم (٧٧) ص ٧٧.

(٦) ديوان ابن عبد ربه: المقطوعة رقم (٢١٨) ص ١٤١.

شَكَّوْتُ مَا بِي إِلَيْكَ وَجَدًا فَلَمْ تَرِقْ وَلَمْ تُبَالِ
أَعَاضَكَ اللَّهُ عَنْ قَرِيبٍ حَالًا مِنْ السُّقْمِ مِثْلَ حَالِي

حتى صار اليأس عند ابن زيدون أملاً يتأمله، وصار اليأس مصدراً يشجعه على تجديد الأمل في عودة محبوبته، قال ابن زيدون: ^(١) [من البسيط]

كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسَلِّبُنَا عَوَارِضُهُ وَقَدْ يَمْسِنَا فَمَا لِلْيَأْسِ يُغْرِينَا

وآخر تيقن أنها لا ولن تبادله الحب مهما طال بها الزمن، يقول كثيّر عزة: ^(٢) [من الطويل]

أُرِيدُ الثَّوَاءَ عِنْدَهَا وَأُظْهِرُهَا إِذَا مَا أَطْلُنَا عِنْدَ الْمُكْثِ مَلَّتْ
وَوَاللَّهِ مَا قَارَنْتُ إِلَّا تَبَاعَدَتْ بِصَرْمٍ وَلَا أَكْثَرْتُ إِلَّا أَقَلَّتْ

ولكن عاطفة الحب متقلبة متناقضة، فسرعان ما يتعلقون بالآمال والأمان، فالنصوص الشعرية تنجح متغير متلون كتغير النفس وتلوّنها، فضلاً عن أن أسباب تأجيج الحب والغزل عند العذريّين أكبر من أن يدركها اليأس.

ومن وجهة أخرى نلمح رتّة الصدق الفني والنفسي التي تنبعث من قصائد الشعراء العذريين فالعاشق العذري لا يكتفم عواطفه ولا يزورها، يدعها تحبو وتتقد، لا يحدها ولا يشدها، فعواطفه كتلة من الانطلاق كدفعه الماء من ينبوع فيها كل ما في ينبوع من أصالة وصدق وفطرية، وهو يعبر عن عواطفه ومشاعره بسذاجة وصدق فيستجيب لما يلقى في روعه دون أن يحاول جهداً خاصاً أو صناعة معينة، ويتحدث عمّا يجيش في نفسه. فالمقطوعات الشعرية العذرية لا تخرج عن أن تكون فيضاً من الانفعالات تدفق في مثل تدفق النفوس وتمضي في مثل أهوائها وتلوّنها، فهي تستجيب لليأس حين يغمرها اليأس، وتستجيب إلى شعاعات الأمل حين ينفذ إليها شعاع من أمل دون أن تُكسى هذه الانفعالات بطبقة من العمل الفني أو طلاءٍ من العناية البيانية. فقد أكثر العذريون من ذرف الدموع والبكاء أو الحديث عنه كدليل على صدق هذه العاطفة وحرارة الوجد، وحرقة الفؤاد، ^(٣) وكما أنّهم عدّوا الصدّ والإعراض وفراغ البال من أمارات القلى والسلوان، فإنهم عدّوا البكاء واللوعة والاشتياق من أمارات الحب.

وإذا كانوا قد اتخذوا الغراب رمزاً للطيرة والشرّ وتشاءوا منه لقبح صوته وسواد لونه، فإنّهم اتخذوا الحمام رمزاً للحزن والإشفاق؛ وذلك لركة فيه بادية وصورة له وديعة وغناء له أخاذ، فاتخذوا منه رمزاً للحب الصادق والوفاء النادر والحزن البالغ، فشاركوه البكاء وشاطروه الحزن ^(٤)، قال ابن عبد ربه: ^(١) [من الطويل]

(١) ديوان ابن زيدون ص ١٢.

(٢) ديوان كثيّر عزة، ص ٦٨.

(٣) يُنظر: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص ٣٢٧، ٣٢٨.

(٤) يُنظر: قضية الحب العذري في شعر بني أمية، ص ١١١.

وَإِنَّ ارْتِيَا حِي مِنْ بَكَاءِ حَمَامَةٍ
كَأَنَّ حَمَامَ الْأَيْلِكِ حِينَ تَجَاوَبَتْ
كَذِي شَجْنٍ دَاوَيْتُهُ بِشُجُونٍ
حَزِينٌ بِكَى مِنْ رَحْمَةٍ لَحْزِينٍ

فالعاطفة العذريّة شكلت موضوعاً رئيساً وخاصة من خواص الغزل العذري الذي يهدف إلى ترجمة هذه العاطفة المشبوبة من خلال الشعر، واختلفت مظاهر هذه العاطفة وتعددت كالجد والألم والحرمان واليأس والشكوى والصدق والقوة والحرارة وذرف الدموع والإيثار والتضحية في سبيل المحبوب.

رابعاً: الواقعية العذرية

نقصد بالواقعية هنا أن الشعر العذريّ كان يعبر عن تجارب وحالات عاطفية حقيقية بمعنى أنه لم يكن شعراً رمزياً، أو شعراً يعبر عن تجارب خيالية، أو أن الهدف منه كان الصنعة الفنية فحسب، وليس من خطتنا أن نثبت من صحة نسبة الشعر إلى أصحابه أو نسعى إلى تحقيقه وتوثيقه أو أن نقوم جهود الدراسين في هذا الميدان.

ومثلما اختلف الدارسون حول قضايا الظاهرة العذرية الأخرى من عفة وعاطفة وحسية وغير ذلك فقد اختلفوا أيضاً في مسألة واقعية الظاهرة، فثمة من رصد الواقعية كسمة وظاهرة بارزة من ظواهر هذا الغزل، وثمة من نحا بالظاهرة العذريّة منحاً رمزياً أو عدها ظاهرة فنية فحسب، أي لم يرَ فيها انعكاساً لتجارب واقعية، ومنهم من ذهب إلى أن الظاهرة تتضمن معاني أخرى غير معاني الغزل الأساسية، وثمة من أكسب الظاهرة أهمية كبيرة سواء كانت انعكاساً لتجارب واقعية أم كانت إبداعاً شعبياً جماعياً متخيلاً.

فقد أقر الدكتور يوسف خليف واقعية الظاهرة العذريّة تجربةً وشعراً وقصصاً إذ يقول: "وأقر منذ البدء أنني لست مع الذين يذهبون إلى أن هذا الحب دخلته الأسطورة وتعمقته حتى أحالته نتاجاً أسطورياً خالصاً أو مجموعة من الأقاصيص نسجتها مخيلة الرواة وصاغتتها أحيلى السمار، فهذا وهم آخر يُغفل طبيعة البيئة التي ظهر فيها هذا الحب وطبيعة الحياة الاجتماعية التي خلفته وما تنطوي عليه من تقاليد ومثل وقيم اختصت بها"^(٢) وهو كذلك لا يدعي أن كل ما وصل إلينا مما يخص الظاهرة يعد صحيحاً لا ريب فيه، فهناك قدر غير قليل دخل هذه الأخبار تزيداً في العلم والرواية وتلبية لحاجات السمر والإمتاع، ويقرر أخيراً أن الإطار العام للظاهرة إطار سليم لم تمسه أيدي الرواة، إنما دخل التزيد في

(١) ديوان ابن عبد ربه، المقطوعة رقم (٢٧٢) ص ١٦٣.

(٢) الحب المثالي عند العرب: ٦، ٧.

التفاصيل والحواسي، أما مسألة اختلاط نسبة الشعر العذريّ إلى أصحابه فإنها لا تدعو إلى رفضه والشك فيه، لأنه نتاج لمجموعة من الشعراء العاشقين جاء متشابهاً نظراً لتشابه التجارب التي تمخضت عنه^(١).

ويرى البهيتي أن الشعر الإسلاميّ ولا سيما العذريّ منه كان انعكاساً لتجارب الشعراء الواقعية من دون لجوء إلى عناصر أخرى رمزية لنقل هذه التجارب^(٢).

ولم يشك الدكتور زكي مبارك في صدق حب جميل وواقعية قصته، فهي صورة واقعية لها نظائر وأشباه في عالم الرجال، ولم تكن من نسج الخيال^(٣). ولا شك في أن التأكيد على واقعية قصة جميل العذريّة يتضمن التأكيد على واقعية شعره، فالشعر نفسه كان المصدر الأساس للقصة.

وذهب فريق آخر إلى إنكار واقعية الغزل العذريّ وقصصه الشهيرة بيد إن آراء هذا الفريق لم تصب في مجرى واحد، فهناك من اكتفى بأن الظاهرة العذريّة مصنوعة، وأن شعرها منحول، وهناك من عدها ظاهرة رمزية، وهناك أيضاً من عد الغزل العذريّ صناعة فنية اقتضاها العصر فحسب.

فقد أسقط المستشرق بلاشير كثيراً من شعرنا القديم - ومن ضمنه شعر الغزل العذريّ - وعده منحولاً من غير أن يقدم دليلاً علمياً على ذلك، ويقرر أن قصة جميل بما فيها من شعر ما هي إلا أسطورة، بل أسطورة معيبة^(٤)، هذا الطعن في صحة شعر جميل يعد طعناً في صحة الشعر العذريّ برمته لأن جميلاً يأتي على رأس المدرسة العذريّة في العصر الأمويّ فضلاً عن إجماع المؤرخين والنقاد على وجوده التاريخي شاعراً وعاشقاً أكثر من أي شاعر عذري آخر^(٥).

ولسنا في هذا المقام بصدد معالجة توثيق الشعر العذريّ، لأن من المسلم به أن هذا الشعر منسوب إلى العصر الأمويّ زماناً وإلى بوادي الحجاز ونجد مكاناً^(٦) ويبدو أن الدكتور طه حسين قد تأثر بآراء بعض المستشرقين فيما يخص الشعر العربيّ القديم، ومنه الشعر العذريّ ومن الفتيات اللاتي كانوا يتغزلون بهنّ جميعاً - في نظره - رموز لا حقائق نظراً لكثرة المتغزلين لأن العصر كان عصر غزل، ورأى أن ليلي عند العرب تشبه هيلانة عند الأغريق^(٧).

(١) ينظر: المصدر السابق: ٧، ٨.

(٢) ينظر: تاريخ الشعر العربيّ: ١٧٩ وما بعدها.

(٣) ينظر: العشاق الثلاثة: ٢٤.

(٤) تاريخ الأدب العربيّ: ٢٨٣/٣.

(٥) ينظر: مثلاً: طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٦٦٩ وما بعدها.

(٦) ينظر: مثلاً: الشعر العذريّ: ١٥ وما بعدها، والحب في التراث العربيّ: ٣٢٢.

(٧) ينظر: حديث الأربعاء: ١٩٤/١.

وفي مكان آخر يعد طه حسين الغزل العذريّ من صنع الرواة،^(١) ومن ثم يعود ويناقض آراءه فيذهب إلى أن الشعر العذريّ يمتاز بـ "الصدق في وصف العاطفة وتمثيلها بحيث لا تكاد تقرأ هذا الشعر حتى تتأثر به وتقطع بأن قائله لم يكن متكلفاً ولا منتحلاً وإنما كان رجلاً يألم حقاً ويصف ألمه وصفاً صادقاً، أو قل كان رجلاً يألم وكان ألمه يصف نفسه"^(٢).

ويذهب الباحث في مكان آخر إلى أن جميلاً وقيس بن ذريح والمجنون وغيرهم من الشعراء لم يكونوا عشاقاً بالمعنى الذي يريده الرواة وأن يخيّلوه لنا، وإنما كانوا شعراء، لأن الغزل العذريّ كان فناً رائجاً في البداية، اختصوا به كما اختص غيرهم بالهجاء، لأن الحياة الاجتماعية كانت تدعو إلى ذلك كما اختص غيرهم بالمدح وغير ذلك. وهو يقرر أيضاً أن شعراء الغزل العذريّ كانوا صناعاً عمالاً كغيرهم من صناع الفن لأن الحياة الأدبية معقدة غاية التعقيد^(٣).

إن كلام الدكتور طه حسين السابق يمكن أن ينطبق إلى حد ما على غرض آخر من أغراض الشعر القديم كالتناقض أو شعر المدح ولكنه لا ينطبق على الغزل العذريّ مع إيماننا بوجود أسباب أدبية للظاهرة العذريّة، هذه الأسباب الأدبية يمكن أن تبرر لبعض شعراء الأندلس نسجهم على منوال الشعر العذريّ محاولةً منهم لإثبات ذواتهم وتفوقهم على المشاركة دون أن يكون لهم قصة حب معروفة.

ونتطرق لرأي خريستو نجم حيث يرى أن بثينة عند جميل هي المثل الأعلى في الجمال والحب واللين والرقّة كما يذهب إلى أنها شخص وهمي، فليست إلا ربة الشعر بالنسبة لجميل، ويخلص إلى أن قصة جميل بثينة ليست حدثاً تاريخياً، وأن العذريّة مدرسة فنية أكثر مما هي وثيقة حياة تكشف لنا سيرة شخص أو تاريخ قبيلة^(٤).

ومنهم من عدّ الغزل العذريّ صناعة شعرية صرفة كما كان لدى التروبادور في الغرب في القرن الثاني عشر إذ كانوا يهتمون بالغزل أكثر من الاهتمام بالحب نفسه بل إنهم كانوا يفتعلون تجارب الحب افتعالاً في سبيل أن تثمر هذه التجارب شعراً غزلياً عفيفاً وفقاً لقواعد محددة وضعت في وقت سابق، ليس للعاشق الشاعر أن يتجاوزها^(٥).

مع أن الفرق بين الغزل العذريّ العربيّ والغزل التروبادوريّ الغربيّ شاسع وإن يكن الثاني متأثراً بالأول، فإن غزل التروبادور عن تقليد وتعمد وترف عاطفي فضلاً عن أن ليس وراءه تجارب حقيقية في الحب،^(٦) بينما كان الغزل العذريّ عن أصالة ومكابدة وتجارب واقعية، لقد كان العذريّون عشاقاً شعراء، كما كانت الظاهرة العذريّة برمتها ظاهرة عشق وغزل. وأنا أميل لرأي خريستو نجم بالنسبة لطائفة من شعراء الأندلس، هؤلاء الذين نظموا أشعارهم الغزلية

(١) ينظر: حديث الأربعاء ١٧/١ وما بعدها.

(٢) حديث الأربعاء : ١٩٤/١.

(٣) ينظر: حديث الأربعاء: ٢١٩/١.

(٤) يُنظر: نجم، خريستو، جميل بثينة والحب العذريّ، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٢، الصفحات : ١٠٤، ١٠٥، ١١٦، ١١٧،

١٧٠، ١٨١.

(٥) يُنظر: نظرية الحب عند الشعراء التروبادور، مقال على الشبكة العنكبوتية للباحث الدكتور عبد الواحد لؤلؤة .

(٦) ينظر: نظرية الحب عند الشعراء التروبادور

واتسمت بسمات الغزل العذري دون أن يُعرف عنهم أو يروى الرواة لهم قصة حب وقعوا في حبائلها، وأختلف معه بتعميم هذا الرأي على الشعراء كافة، فلا يمكننا إنكار جميع القصص لهؤلاء العشاق المتيمنين، انطلاقاً من جميل بثينة وكثير عزة وصولاً إلى ابن زيدون وابن الجداد.

أما الدكتور إحسان سركيس، فإنه لم ينكر واقعية الغزل العذريّ وتعبيره عن تجارب حب إنسانية طبيعية، ولكنه ذهب إلى أن هناك معاني أخرى غير معاني الحب الاعتيادي حملها الغزل وجاءت من خلال التعبير عن عاطفة الحب نفسها، وهذا أمر طبيعي، فكثيراً ما يأتي الغزل بوجه عام مشحوناً بمعاني أخرى من خلال معاني الحب الأساسية إذ تجد هذه المعاني منتفساً لها من خلال الغزل^(١).

إننا لا ننكر أن الغزل العذريّ فضلاً عن تعبيره عن تجربة الحب الواقعية، كان حاملاً لمعانٍ أخرى، وجدت لها فرصة من خلال التعبير عن عاطفة الحب فمن هذه المعاني: الحنين إلى الماضي، بما فيه عصر الصبا والشباب، وإلى مراتع الصبا، وغيرها من المعاني الأخرى الثانوية.

فمن خلال هذه الآراء المختلفة في تقرير واقعية الغزل العذري نقف في صف الذين ذهبوا إلى أن الواقعية سمة بارزة من سمات هذا الغزل، بل من سمات الظاهرة بوجه عام على مستوى تجربة الحب والغزل والقصص، ولا شك في أن هناك تزييداً وخيالاً قد دخلا في الظاهرة في المشرق، ولكنهما لا يلغيان واقعيتها بقدر ما يؤكدانها، إلا أن قصص الحب الأندلسية لم تدخلها المبالغات والخيال، كما تؤكد أنها ظاهرة أدبية قائمة بذاتها اتكأ عليها الأندلسيون لإبراز شخصيتهم وتوكيد ذواتهم وإثبات تفوقهم على المشاركة. ونقرر كذلك أن ثمة معاني غير معاني الحب الاعتيادي قد وجدت طريقها إلى الظهور من خلال الغزل، أشار الدارسون والنقاد إلى بعضها، ولا أوافق الذين رفضوا واقعية الغزل العذريّ وتاريخيته ومضوا إلى تأويل الظاهرة تأويلاً أسطورياً أو رمزياً.

ولقد تبين لنا من قبل أن هذا الغزل لم يكن خيالياً بل كان قضية نخض بها العذريّون؛ لها أسبابها الاجتماعية والحضارية والسياسية وغيرها عبروا من خلالها عن تجاربهم العاطفية الواقعية، فالنص العذريّ ارتبط بالواقع إذ استطاع الشاعر العذريّ بفطرته وموهبته أن يحول الحب والإحساس إلى لغة شعرية رائعة بما في ذلك الحب من تعقيد وأسرار وتفصيلات.

(١) ينظر: في الشعر الإسلامي والأموي: ١٢٠.

خامساً: توحيد المحبوب في الحب العذري:

يعد توحيد المحبوب في العشق ظاهرة ملموسة سواءً عند العذريين أم عند غيرهم من العشاق في كل زمان ومكان، بيد أنها عند العذريين أكثر وضوحاً وانتشاراً، فضلاً عن أن التوحيد عندهم مرتبط بالديمومة والاستمرار في الحب للمحسوب نفسه.

ويؤكد العلماء الذين ألفوا في الحب على هذه الظاهرة، فابن حزم مثلاً يرى أن التوحيد واحد من مقومات الحب، " وأنه لا يمكن أن يحب المرء اثنين حباً حقيقياً، وأن من يزعم أنه يحب اثنين، ويعشق شخصين متغايرين فإن هذا من الغلط، فإنما هذا من جهة الشهوة، وهي على المجاز تسمى محبة لا على التحقيق"^(١). وإن كان في وسع المرء أن يحب عدداً كبيراً من المخلوقات، إلا أن طبيعة تكوينه النفسي توجهه في العادة نحو مخلوق بعينه، وكأنما هو وحده الذي يستطيع أن يضمن له السعادة أو أن يكفل له الوحدة النفسية المطلوبة.

وتوحيد المحبوبة سمة بارزة من سمات الحب العذري، جسدها الشعر العذري نفسه، ورصدها النقد ومؤرخو الأدب ووصفوها وحللوها، فمن أهم خصائص الحب العذري أنه " توحيد لا إشراك فيه، فهو يملأ على الحب نفسه وينتظم أجزائها فلا تلتفت إلا إلى الواحد المشغوفة به، وليس الحب الصادق لهواً أو عبثاً من العبث حتى تسهل فيه النقلة ويطيب فيه التغير والتحول، وإنما هو عاطفة قوية جبارة تصرف المحب إلى محبوبه وتشغله به عما سواه"^(٢).

والعذريون عاشوا مخلصين لمحبوباتهم " إذ وهب كل منهم حياته لواحدة أخلص لها حبه ولم يشرك به حباً آخر، وهو يعيش بها ولها ولم يعد في قلبه متسع لمحبة أخرى."^(٣)

إن قدم المحبة ورجوعها إلى عهد الصبا والاستشهاد بالعشق والوصول إلى مرحلة متقدمة من مراحل الحب بحكم إعمال الفكر بالمحبة والانشغال بها عن سواها، كل هذا جعل العاشق لا ينفك عن محبوبته حتى الموت.

وتجدر الإشارة كذلك إلى أن التوحيد العذري مرتبط بظاهرة الديمومة، كما ذكرنا فالعاشق العذري يلتزم حب واحدة طول العمر، كما مرَّ معنا في قصة ابن الحداد، إلا أننا نجد التوحيد عند العاشقين الآخرين يعني عدم حب اثنين في الوقت ذاته، ولكن ما إن ينتهي الحب الأول أو يفشل حتى يقع صاحبه في حب آخر.

(١) ينظر: طوق الحمامة: ٤٦.

(٢) الحب العذري: نشأته وتطوره: ٣٦.

(٣) الحب المثالي عند العرب: ٥٩، ٦٠.

المبحث الثالث: الخصائص الفنية في الشعر العذري في الأندلس

بعد دراسة مظاهر الغزل العذري وسماته، لا بد من وقفة مع الخصائص الفنية للغزل العذري في الأندلس.

١. الملامح الأسلوبية:

إذا كان الشعر مرآة لنفوس قائله وانعكاساً لطبائعهم وأهوائهم. فإن شعر العذريين يعد نموذجاً فريداً لصفاء العبارة وإشراق الديباجة ووضوح التراكيب؛ فأسلوبه رائق لا يشوبه الكدر، واضح لا يفسده التعقيد والالتواء لأن من شأن الطبائع السمحة أن يترجم عنها أسلوب سهل رقيق، كما أن من شأن الطبائع الجافية الغليظة أن يعبر عنها أسلوب كثير الالتواء شديد التعقيد.

ومن يطالع نماذج الغزل العذري بعامة، يراها بعيدة عن التعقيد والغموض وضعف التأليف، كما يراها دانية القطوف، لقرب مآثاها ويسر تناولها، وقد توسلوا في صياغتهم بوسائل فنية كفلت لأساليبهم هذا القدر من الجمال والسلاسة نجملها فيما يلي:

أ - براعتهم في حشد كثير من الألفاظ ذات الدلالات والإيحاءات الشعورية التي تصور حالهم وما يكابدونه من الشوق والحنين وكثرة البكاء والشجن والأنين، وغير ذلك من الألفاظ المشعة الموحية بالهيام والوجد والضي والزفريات والأنات والعيول والفرقة والنوى.

ب - مهارتهم في استخدام الألفاظ وسلوكها في نظامها ووضعها في الإطار الملائم لها، بحيث تنهض بدلالاتها اللغوية أتم نخوض وتقوم بدورها الفني في السياق أتم قيام، ولهذا أكثروا من أساليب الإنشاء وبخاصة الأمر والاستفهام والتمني والنداء، كما أكثروا من الندبة والقسم والحوار، ولكل من هذه الأساليب دلالاته البلاغية والنفسية وإيحاءاته الغنية بشتى المشاعر والانفعالات التي تموج بها نفوسهم وتفيض بها خواطرهم.

ج - تكرار الألفاظ التي لها دلالة نفسية عند الشاعر، والتكرار ظاهرة عامة عند العذريين، إما لاهتياج مشاعرهم واضطراب خواطرهم وإما لشدة شوقهم إلى محبوباتهم، فيجدون في تكرار الاسم ضرباً من الراحة ولونا من التلذذ والمتعة. كما هو الحال عند ابن الحداد.

وقد يكون التكرار لغاية جمالية فطنوا إليها بحسهم الفني وذوقهم الأدبي، وهي التي أطلق عليها البلاغيون اسم « رد العجز على الصدر »، وذلك بأن تذكر في حاشية البيت كلمة تمهد للقافية أو ترشح لها.

ولهذه السلاسة في أساليب العذريين، دارت هذه الأساليب على الشفاه ورددتها مجالس الغناء؛ لاشتمالها على عناصر وجدانية لا تنوافر في غيرها من الأساليب، وهذه العناصر تتمثل فيما يأتي:

أولها: هذا الإحساس الصادق الذي يشيع في أساليبهم والشعور المتدفق الذي يكسب هذه الأساليب القدرة على التأثير، والمغنى عادة يتطلب مثل هذا الأسلوب الموحى الذي يشد إليه أسماع المتلقين ويعطف عليه قلوبهم.

ثانيهما: هذه الرقة والسلاسة، وهذا الوضوح والإشراق والصفاء، إنها صورة لإشراقهم النفسي وصفائهم الروحي وحسّهم المتوقد وطبيعتهم الشاعرة وخواطهم المضطربة بنار الوجد وحرارة العاطفة.

ثالثهما: هذه الموسيقى الرائعة التي تصدر عن أوزانهم الشعرية الشائعة وعباراتهم الموحية وجوهرهم النفسي ومعانيهم التي تنساب في وضوح وإشراق الأسلوب وهذه الموسيقى الشائعة هي نتيجة طبيعية للتطابق بين إشراق النفس وإشراق الأسلوب اللذين يغلبان على أداء شعراء الحب، العذريين منهم بشكل خاص.

وبشكل عام فقد اتسمت ألفاظهم بالجزالة في عصر الإمارة الأموية والخلافة بسبب قرب عهدهم بالمشرق، ثم خفت تلك الجزالة شيئاً فشيئاً وتحولت إلى السهولة والبساطة لتأثرهم بالبيئة المحيطة بهم وبالمجتمع الأندلسي.

٢. المعاني:

أما من حيث المعاني والأفكار، فقد دار الغزل العذري حول مشاعرهم وما قاسوه من الوحدة وطول السهر وتفاقم المرض وتأمر الوشاة وغير ذلك من معاني الحب، ومثل هذه المعاني نجدها عامة وشائعة بين العذريين، وهي معان فطرية فيها كثير من السذاجة والسطحية، وإن لم تفتقد الصدق وقوة التأثير، إذا كان الشاعر مهتاج الخاطر دائماً متوتر الشعور كثيراً، فكان في عرض معانيه أسير هذه العاطفة المهتاجة، لا يتأنق ولا يختار ولا يأتي بما وفق مقتضيات المنطق ومتطلبات العقل، وإنما يلقي أفكاره كيفما تهأت ويعرضها حسبما جاءت وكيفما كانت؛ لأنه مهتم أولاً وأخيراً بمشاعره وعرض هذا الفيض النفسي الذي يمج في داخله ويهدر أعماقه، ولا يعنيه أين يقع هذا الكلام من غيره، لأنه لا يتوجه به إليه، وإنما يتوجه به إلى ذاته يحدثها ويفضض عنها آلامها.

فهذا الغزل - في حقيقته - ترجمة ذاتية، وهو حديث للنفس عن النفس بكل ما فيها من جوانب القوة والضعف والتماسك والهوان، ولهذا كان أبرز ما يميزه الصدق، سواء كان صدق الشعور أو صدق التعبير؛ فالصدق الشعوري أو النفسي في عرض الأفكار يتمثل في تقديم العذري نفسه لنا كما هو بكل ما تحب و تكره وبكل ما تشاق إليه أو تنفر منه. والصدق التعبيري أو الفني يتمثل في استجابة الشاعر لما يلقي في روعة دون تزويق أو تنميق، وحديثه عنه حديثاً فطرياً يمتزج فيه الفكر بالوجدان والعقل بالعاطفة مع غلبة الجانب الوجداني على هذا الحديث؛ لأن من شأن انسياب العواطف واهتياج الخواطر أن يكون الجانب الوجداني أكثر بروزاً وإشراقاً، وبخاصة أن أكثر العذريين كانوا في أغلب حالاتهم ذاهبي الوعي ذاهلين عما حولهم في عوالمهم الخاصة يجترئون ذكرياتهم ويكون على ما ضاع منهم. " وبشكل عام فالشاعر المثقف يكون أعمق تفكيراً وأحسن ترتيباً للمعاني، وأحرص على جمال التصوير وصفاء التعبير، وبذلك تغزر معانيه وتحذب عبارته، ويتوافر له الملاءمة بين الألفاظ والمعاني، والشاعر غير المثقف الذي لم تصقله التربية،

أو لم يزود بثقافة كافية يقف عند حدود الطبع، ويتوجه في الغالب إلى جرس اللفظ وإشراق الديباجة، لعلها تعوض ما فاته من ابتكار المعاني والغوص وراء الأفكار " (١)

٣. الموسيقى:

تميز شعر الغزل بعامة، والغزل العذري منه بصفة خاصة، بجمال الموسيقى وعذوبة الإيقاع؛ لأنه كان في جملته ترانيم ذاتية يتغنى بها الشاعر في عالمه الخاص ويتوجه بها إلى محبوبته يرجو رضاها وينشد مودتها. وليس أدل على هذا الجمال من انتشاره على الألسنة وإقبال المغنين عليه، يتخذونه مادة للغناء وتوقيع الألحان، مع أنه لم يخرج في جملته عما ألفه الناس وتعودوا على سماعه من الجاهلين والإسلاميين في إطار القصيدة العمودية المعروفة. غير أن هذا الغزل لم يكن يستمد جماله من الوزن والقافية فحسب، وإنما كانت له مصادر أخرى تمدّه بألوان من الجمال لا تقل في تأثيرها التقليدية المتوارثة.

وأول ما نلاحظه على موسيقاهم التقليدية، أنهم عمدوا إلى الأوزان الشائعة فأكثرها منها وبخاصة الطويلة، وحرصوا على استواء الإيقاع وتجنب الزخافات والعلل التي تؤدي إلى خلخلة الإيقاع وعدم استوائه. كما نلاحظ أن المطولات في أشعارهم قليلة، وإن أكثر ما قالوه مقطوعات قد يقتصر بعضها على بيت واحد أو بضعة أبيات، وقد يكون ذلك لضيق كثير من شعرهم أو لاضطراب حياتهم واهتياج خواطرهم، وغير ذلك مما لا يوفر لهم الإخلاص لتقصيد القصائد وإطالتها.

أما قوافيهم فقد برعوا في تخيرها وتوظيفها في خدمة ومهارة، وقلما نجد فيها إغراباً أو إعنائاً للنفس أو إغراماً بالتفاسيح، وإنما نجد سهولةً ويسراً وجمالاً يتطلبه السياق. وإذا كنا قد لاحظنا كثرة المقطوعات في أشعارهم، فإننا نلاحظ وقوع بعضهم في خطأ تكرار القافية غير مرة في القصيدة الواحدة، وتلك ظاهرة ملموسة في شعر ابن عبد ربه خاصة. هذا التكرار قد يكون مرجعه تداخل أشعار العذريين وتلفيق الرواة بينها، أو اهتياج خاطر الشاعر وإرساله الشعر كما يتأتى دون احتفال أو تمحيص.

ويضاف إلى هذين العنصرين من عناصر الموسيقى؛ الوزن والقافية، عنصر ثالث يضيف على أشعارهم لونا من الموسيقى الخفية، وهو براعتهم في تخير الألفاظ الموحية ذات الدلالات الشعورية الكاشفة ونظمها في أساليب عامرة بالحركة تقوم على الحوار الداخلي والخارجي، والتنويع بين الخبر والإنشاء؛ وذلك من شأنه أن يزيد من جمال الأسلوب ويمده بشحنة قوية من المشاعر الصادقة والانفعالات الحارة التي تعد من أبرز خصائص العذريين وأوضح سماتهم.

ولئن لم يبلغ العذريون ما بلغه غيرهم من الوجهة الفنية البحتة؛ لما في شعرهم من تلقائية واضحة ولما في معانيهم من بساطة ووضوح ولما في خيالهم من قرب شديد، فإن ما فيه من المشاعر الإنسانية الصادقة قد كفّل له البقاء وحبيه لجميع المتلقين ووفر له أسباب الذبوع والانتشار.

(١) الأسلوب: أحمد الشايب، مطبعة الاعتماد بمصر، ط ٢، ١٩٤٥ م، ص ١٠٧.

٤. الصورة الشعرية:

من شأن التجارب الشعرية التي يطغى فيها الجانب الوجداني على العقل، أن تكثر فيها الصورة الشعرية ويبرز فيها دور الخيال بروزاً واضحاً، ولكننا نلاحظ في هذا الغزل العذري أمراً مغايراً؛ فالصورة الشعرية هنا قليلة للغاية، وهي على قلتها بسيطة غير مركبة قريبة لا إغراب فيها ولا إغراق، لأن العذري لم يكن يعتمد على الصور الخيالية قدر اعتماده على العبارة الموحية واللفظ الغني بالدلالات الشعورية، ولم تكن البراعة الفنية عند العذريين في أساليبهم الفنية، وإنما كانت قبل كل شيء وأكثر كل شيء في تعرفهم لسرائر النفوس وفي عرضها ساذجاً يسيراً.

جاء شعر العذريين عامراً بالدلالات الشعورية والإيحاءات اللفظية والانسحاب العاطفي والصدق الفني أكثر من مجيئه عامراً بالصور الخيالية، لكن نظرهم الشعرية وعواطفهم الصادقة كانت تهديهم في كثير من الأحيان إلى صور تحمل كثيراً من الحس المرهف أو الرقة البالغة أو البصيرة النافذة، وكأنها ومضات تلمع في خاطر الشاعر ثم تشرق في بيت أو بيتين أو بضعة أبيات، ثم يعود الشاعر بعدها على مستواه المؤلف وصوره التي لا يفتأ قارئ هذا الشعر يصادفها في قصيدة أو أخرى.

غير أننا إذا تأملنا تلك الصور الخيالية بعيداً عن تلك الومضات الشعورية الكاشفة فسوف لا نجد إبعاداً ولا إغراباً، وإنما نجد صوراً مألوفة يمكن أن نقع على مثلها عند شاعر أو أكثر، فكثيراً ما تشبه الحبوبة بالغزالة والبدر والشمس، وكثيراً ما تصور لحاظها بالسهم القاتلة وعيناها بعيني مهة وعنقها بإبريق الفضة وريقها بالخمير وصدرها ببياض اللجين. وهي الصور التقليدية المستخدمة في الشعر رفدتها وأغنتها صور جديدة مستمدة من الطبيعة الأندلسية التي أغنت خيال الشعراء.

ولو ذهبنا نبحت عن الصور المركبة ذات العناصر المتعددة، لوجدناها تستمد عناصرها من البيئة الأندلسية، وهي تشكل ظاهرة فنية دارت حول المشاهد الطبيعية التي يلتقطها الشاعر من الطبيعة المحيطة ويعكسها أثناء تعبيره عن عاطفته.

فمثل هذه الصور الجزئية أو المركبة التي نقع عليها في شعر العذريين لا تبعد كثيراً من حيث الشكل عن كثير من الصور المألوفة عند شعراء الغزل لكنها تختلف عنها بما تشف عنه من شعور قوي وعاطفة جياشة وإحساس صادق. ولعل هذا الصدق الفني هو موطن التأثير في هذا الغزل الذي يشف عن وجد دفين وصبابة متأججة وحب يذهب بصاحبه كل مذهب.

٥. بنية القصيدة العذرية:

تخلصت القصيدة العذرية من المقدمة التي كان يعتمد إليها الشعراء لأن العذريين اتخذوا من تجاربهم الشعورية، وهي تجارب ذاتية بالغة الصدق اتخذوا منها مادة للحديث ومحوراً يديرون حوله خواطرهم، فاقتحموا الموضوع مباشرة دون حاجة إلى تمهيد أو مقدمة يتخذون منها مدخلاً للحديث عن تجاربهم العاطفية؛ إذ أن هذه التجارب كانت تتيح لهم وصف الديار لا على أنها مقدمات طلبية ولكن على أنها دفقة شعورية تمثل حلقة من حلقات التجربة.

فكثيراً ما كان العذري يذهب إلى ديار المحبوبة يتنسم عيبرها أو ليرنو إليها من وراء الأكمات والتلال أو ليلتقي بها في غفلة من القوم وبعيداً عن الرقباء، فيفاجأ بما قد رحلت ويفاجأ بالمكان وقد غدا مقفراً، والآثار قد درست، فتهتاج خواطره وتفيض أحزانه وتضطرم مشاعره، فينكب على ما بقى من آثار الديار يشبعها لثماً ويرويها دموعاً ويلصق صدره بترابها يبرد من حرارته ويهدد من خواطره، يأخذ عليها ما ليس منها، وكان ابن زيدون أكثر هؤلاء الشعراء ذكراً لديار المحبوبة ومرايع الصبا والحنين إليها، لكنه لم يتخذ الحديث عن الأطلال وسيلة لتذكر الأحبة أو أسلوباً غير مباشر للحديث عن الحب؛ لأنه لم يكن في حاجة إلى من يذكره بالأحبة لأنهم ملء سمعه وجنانه، كما لم يكن من طابع العذري الالتواء والغموض وإنما كان يؤثر الصراحة والوضوح والحديث المباشر عن النفس وعن الأحباب.

وإذا كان العذريون قد صدروا في قصائدهم الغزلية عن تجارب عاطفية بالغة الصدق، فإن القصيدة العذرية قد توافر لها قد كبير من الوحدة العضوية وكثير من الصدق الفني والنفسي. وقد اصطلاح النقد الحديث على أن الوحدة العضوية تشمل وحدة الموضوع ووحدة الجو النفسي، وإذا كنا نقول بأن العذريين صدروا عن تجارب شعورية صادقة، فإن ذلك معناه أن وحدة الجو النفسي قد توافرت لها؛ لأنها جاءت استجابة لمشاعر ذاتية وتصويراً لانفعال صادق وأحاسيس عميقة خالية من الافتعال والتصنع، وذلك في حقيقته برهان هذه الوحدة الشعورية التي تسيطر على جوانب القصيدة، فلا نرى فيها فتوراً أو بروداً، ولا نلمس فيها تناقضاً في الشعور ولا تلوناً فيه وكيف يتلونون وهم يخوضون تجربة حب يائس تجرعوا فيه كثيراً من الغصص دون أن يبيل أوراها أو يطفئ لهيبهم الذي استعر في أحشائهم يكوي الأكباد والقلوب قبل أن يمس الجلود والأطراف.

أما وحدة الموضوع فقد توافرت لها بصورة عامة؛ لأن القصيدة التي تصور أحاسيس مجردة وخواطر ذاتية في الحب، وتعتبر عن حالات شعورية من الشوق والحرمان والذكريات والأمنيات، جدية بأن تتربط أجزاؤها وتتحقق لها وحدة واضحة في جوها العام وفي فكرتها الرئيسية. على أن الحديث عن الوحدة العضوية يختلف من قصيدة لأخرى باختلافها طولاً وقصراً، فالقصيدة العذرية المطولة كانت معرضاً لكثير من الخواطر التي تزدحم بها نفس العاشق الذي يتميز بجيشان الشعور وفوران العاطفة واهتياج الخاطر، وكثيراً ما كان يؤدي هذا الانسياب العاطفي إلى ازدحام القصيدة العذرية بكثير من المعاني المجردة المتصلة بالحب وما يتعلق به من الذكريات والشوق والحنين ومشاهد اللقاء والفرق والتحية والوداع وغيرهما مما كان يكابده العاشق ويلاقيه من حرارة العشق ومرارة الحرمان.

وهذه المعاني المجردة، وإن انبثقت من التجربة الرئيسية، تجربة العشق، لا تمثل موقفاً واحداً؛ إذ لا يمكن أن تصدر هذه الشحنة المتضاربة من الانفعالات في موقف واحد، لأن علينا إن تصورنا إمكان ذلك أن نتصور أنه كان يفرج ويجزن وييش ويكتتب وينعم باللقاء ويشقى من الحرمان في آن معاً.

هذا عن القصائد المطولة، أما المقطوعات القصيرة التي تدور حول خاطرة معينة أو تصور حالة شعورية محددة، فإنها كانت أكثر التحاماً وتماسكاً من القصائد المطولة؛ لما توافر فيها ولها من الوحدة العضوية بجناحيها الموضوعي والنفسي، فوحدة الموضوع تتمثل في فكرة واحدة تدور حولها المقطوعة غالباً، ووحدة الشعور تتمثل فيما يشيع فيها من موقف شعوري واحد لا يكاد يتعدد أو يتبدل.



الخاتمة

لقد كان الشعر في الأندلس من حيث المواضيع والأغراض يحذو حذو الشعر في المشرق، فقد نظم شعراء الأندلس الشعر في أغراض المشرقيين من مدح وهجاء ورثاء وفخر وحكمة وزهد وغزل ووصف للخمر، كما نظموا في التاريخ والعروض والنحو والصرف والفقه والفلسفة والاجتماع، إلى ما هنالك من أغراض سبقهم إليها شعراء المشرق.

ولعل هناك ما يبرر تقليد الشعراء الأندلسيين لشعراء المشرق ومجاراتهم لهم في الأغراض، في بداية الوجود العربي في الأندلس، ذلك أنهم كانوا قريبي العهد ببلاد المشرق، واستمر اختلاطهم بهم عن طريق وفود هؤلاء إلى الأندلس ورحلات أهل الأندلس لبلدان المشرق. غير أن هذا التقليد وهذه المجارة خفّت شيئاً فشيئاً، إلى أن تبلورت الشخصية الأندلسية وتميزت من أختها المشرقية وذلك في القرنين الرابع والخامس الهجريين، فجاء في الشعر الأندلسي شيء من المعاني المبتكرة والخيالات الجديدة لاسيما في شعر الطبيعة وشعر الوصف، وذلك بسبب تأثر الشعراء بطبيعة الأندلس التي تختلف عن طبيعة بلاد المشرق، وتأثرهم بالبيئة المحيطة بهم من رياض وبساتين وأنهار وأشجار ومباني وأحواض ونوافير وبرك وغيرها من مظاهر الطبيعة، وما استلزمته أسباب المدنية والعمران والحضارة في الأندلس. كما طرأ تعديل جوهري على شعر الغزل العذري عند بعض الشعراء، لدرجة أن الشاعر أصبح ينظم قصائد عذرية دون أن يُعرف عنه قصة حب، إنما ينظمها لإثبات ذاته وشعريته.

أما أسلوبهم فقد كان أسلوباً رقيقاً سهلاً في أكثر شعرهم، فلا نجد فيه غرابة في اللفظ أو تعقيداً في المعنى إلا عند من تعمّد ذلك تشبهاً بشعراء المشرق، ولم تكن لغة الشعراء في الأندلس محكمة دائماً كلغة شعراء المشرق وذلك لابتعادهم عن مهد اللغة واختلاطهم بشعوب جديدة غير عربية، إلا أن ما ذكرناه عن أسلوب الشعر الأندلسي وسهولته ورقته وعدم إحكام لغته أحياناً لا يجعلنا ننسى أن نذكر أن فيه كثيراً من الشعر الجزل الأسلوب الرقيق المعاني، الذي يصدق فيه قول ابن بسام: "ذهب كلامهم بين رقة الهواء وجزالة الصخرة كما قال صاحبهم عبد الجليل بن وهبون يصف شعره:

رقيق كما غتت حمامة أيكّة وجزل كما شقّ الهواء عقاب"^(١)

١ - الذخيرة، ابن بسام، ق ١، مج ١، ص ٣.

ويمتاز الشعر الأندلسي في ألفاظه ومعانيه وأخيلته بسمات تبدو واضحة في مجمله، ومنها:

- ١- وضوح المعنى، والبعد عن التعقيد الفلسفي أو الغوص على المعاني.
- ٢- سهولة الألفاظ وسلاستها، والبعد عن التعقيد والغموض، وذلك ناتج عن بساطة الأندلسيين وبعدهم عن التعقيد في كل شيء.
- ٣- قلة الدخيل والألفاظ الأعجمية؛ فيمكنك أن تلاحظ أن الأندلسيين أكثر تمسكاً بالعربية الفصحى من غيرهم .
- ٤- التجديد في بعض أغراض الشعر والتفوق فيها، وذلك بتأثير البيئة المحيطة، كما رأينا التجديد في شعر الغزل العذري.
- ٥- الخيال المجنح، وبراعة التصوير، والاندماج في الطبيعة، ووصف مناظرها الخلابة، وذلك أثر من آثار جمال الطبيعة الأندلسية، وتعلق الأندلسيين بطبيعة بلادهم، وانعكاس ذلك على شعرهم سواء من ناحية الألفاظ المنتقاة أو الخيال أو التصوير والتشخيص .
- ٦- التجديد في الأوزان، وذلك باختراع الموشحات.
- ٧- البعد عن المحسنات اللفظية المتكلفة والمبالغة، وبروز التشبيهات الجميلة والاستعارات الدقيقة وحسن التعليل .

ولا يُنسى فضل الأندلسيين في التجديد باختراعهم الموشح؛ ذلك أنّ رقي الأندلس العلمي والفني جعلهم يشعرون بوجوب تغيير الشعر القديم في صوره وأساليبه وشكله فاستحدثوا الموشح ذا الأوزان المغايرة لما اعتاد عليه شعراء المشرق والقوافي المنوعة. كذلك نشأ في الأندلس شعر الزجل، الذي نظمته العامة على منوال الموشح الذي شاع، ولكن باللغة المحكية من غير أن يلتزموا فيه إعراباً. وقد انتشر الزجل في الأندلس كما انتشر الموشح واستحسنه كثيرون من الشعراء. وعن الأندلسيين أخذ أهل المشرق فيّ الموشح والزجل.

كلمة أخيرة

ولست أدعي الإحاطة بالموضوع من جميع أطرافه ونقاطه ولكني أعترف بأنني بذلت جهداً كبيراً للوصول إلى كل ما يجب وما يمكن الوصول إليه لدراسة هذا الموضوع. وإن خير ما أختتم به رسالتي: كلمة القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني الذي استطاع أن يصور بما تصويراً دقيقاً ما يحتاج نفس المؤلف بعد أن يكتب ما يكتب، من قلق نفسي يدفعه إلى التفكير في إضافة فكرة أو حذف أخرى، مما أشعر به أنا بعد كتابة ما تقدم ويشعر به كل كاتب على ما أرجح. قال القاضي البيساني: " إني رأيت أنّه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده:

لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زيدَ كذا لكان يُستَحسن، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبرِ وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر^(١).



(١) يُنسب هذا القول خطأً إلى العماد الأصفهاني، والصحيح أنه للقاضي عبد الرحيم بن علي البيساني وكان قد بعث به إلى الأصفهاني. يُنظر: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: محمد بن محمد الحسيني الزبيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٩ م، ج ١، ص ٤.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الإشبيلي ابن خاقان، الوزير الكاتب أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، دار النشر / مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٨٣م، الطبعة : الأولى.
- الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داوود، الزهرة، حققه وقدم له وعلّق عليه: د. إبراهيم السامرائي، ج ١، مكتبة المنار، الأردن - الزرقاء، ط ٢، سنة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥.
- الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، مصوّر عن طبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣م.
- الأصفهاني الكاتب، عماد الدين، (العماد الأصفهاني)، خريدة القصر وجريدة العصر (المغرب والأندلس): تحقيق: محمد المرزوقي، محمد العروسي المظوي، الدار التونسية للنشر - ١٩٨٦م
- أمين، أحمد، ظهر الإسلام: دار نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٤٥.
- الأندلسي، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م
- البجاري، يونس طركي، المعارضات في الشعر الأندلسي: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨.
- بدوي، أحمد أحمد: أسس النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة، مصر، القاهرة.
- بلاشير، ريجيس، تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٤.
- بيهم، محمد جميل، المرأة في الإسلام وفي الحضارة الغربية، تقديم جورج طرايشي، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ١٩٨٠.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- جرار، صلاح، قراءات في الشعر الأندلسي، دار المسيرة، عمان، ط ٢، ٢٠٠٩.
- ابن جعفر، قدامة: نقد الشعر، شرح: محمد عيسى منون، المطبعة الميمنية، ١٩٣٤.
- الجوّاري، أحمد عبد الستار، الحب العذري نشأته وتطوره، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦.
- الجزوية، ابن القيم، روضة المحبين ونزهة المشتاقين: طبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، سنة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧.
- الحاتمي، أبو علي محمد بن الحسن، الرسالة الموضحة (في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره)، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، دار بيروت، بيروت، سنة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥.
- ابن الحداد، ديوان ابن الحداد الأندلسي، تح: د. يوسف على طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١.

- ابن حزم، أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي، رسائل ابن حزم الأندلسي، تح: د. إحسان عباس.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاف: ضبط نصّه وحرر هوامشه: الطاهر أحمد مكّي، مطبعة دار المعارف، ط ٢٠، سنة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧.
- حسين، طه، حديث الأربعاء، دار المعارف بمصر.
- أبو حسين، محمد صبحي، صورة المرأة في الأدب الأندلسي - في عصر الطوائف والمرابطين: عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط ٢، ٢٠٠٥ م.
- الحموي، ياقوت، معجم البلدان. دار الفكر - بيروت.
- الحميدي، محمد بن فتوح بن عبد الله: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: بشار عواد معروف - محمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، ط ١ : ٢٠٠٨ .
- الحوفي، أحمد: الغزل في العصر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر، ط ٢، ١٩٦١.
- ابن خاقان، الوزير الكاتب أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق: محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣ م، الطبعة: الأولى.
- ابن الخطيب، لسان الدين: جيش التوشيح، تحقيق وتقديم: هلال ناجي مكتبة المنار، تونس، بلا سنة النشر ورقم الطبعة.
- ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عتّان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٣ هـ، ١٩٧٣ م.
- ابن الخطيب، لسان الدين: ربحانة الكتاب ونجعة المنتخب، تحقيق: محمد عبد الله عتّان، دار النشر: مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٩٨٠ م، الطبعة: الأولى
- ابن خفاجة، ديوان ابن خفاجة، تح: عبد الله سنده، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٦.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت.
- خليف، يوسف، الحب المثالي عند العرب، طبعة دار المعارف، مصر، سنة ١٩٦١.
- ابن دحية، عمر بن حسن: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان.
- درويش، العربي حسن، قضية الحب العذري في شعر بني أمية، مكتبة النهضة المصرية.
- دعبس، سعيد: الغزل في الشعر العربي الحديث، المكتبة الوطنية ببنغازي، والقاهرة، مصر، ط ١، ١٩٧١.
- الدغلي، محمد سعيد، الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي، دار أسامة، ط ١، ١٩٨٤ م
- الدقاق، عمر، ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٦.

- الدهان، محمد سامي: الغزل منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية، دار المعارف، مصر، ط ٣.
- الزبيدي، أبو بكر، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١.
- الزبيدي، محمد بن محمد الحسيني، إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٩.
- الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر، ط ١، سنة ١٣٠٦ هـ.
- ابن الزقاق البلنسي، الديوان. تحقيق عفيفة محمود ديرياني، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
- ابن زيدون، ديوان ابن زيدون. شرح: يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٦.
- سابا، عيسى، المغنيات في الأدب العربي دار الثقافة، بيروت.
- السراج، أبو محمد جعفر، مصارع العشاق، طبعة دار صادر، بيروت، سنة ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨.
- السعيد، محمد مجيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين، الدار العربي للموسوعات، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥.
- السعيد، محمد مجيد: الشعر في ظل بني عباد، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ط ١، ١٩٧٢.
- ابن سعيد المغربي الأندلسي، أبو الحسن علي بن موسى، المغرب في حلّى المغرب، المحقق: د. شوقي ضيف الناشر: دار المعارف - القاهرة .
- ابن سلام الجمحي، محمد: طبقات فحول الشعراء، دار المدني، جدة، تحقيق : محمود محمد شاكر .
- سليمان، موسى، الحب العذري: طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت، ط ٣٠، سنة ١٩٦١ م.
- سماكة، باقر، التجديد في الأدب الأندلسي:، مطبعة الإيمان، بغداد، ١٩٧١
- ابن سيده، علي بن إسماعيل، المخصص، طبع بولاق، مصر.
- الشايب، أحمد، الأسلوب، مطبعة الاعتماد بمصر، ط ٢، ١٩٤٥.
- الشريف، الغوثي العربي، الأدب في المرية في عهد بني صمادح، رسالة ماجستير، جامعة حلب.
- الشكعة، مصطفى، الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١١، ٢٠٠٥.
- شلي، سعد إسماعيل، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر - عصر ملوك الطوائف، دار نهضة مصر للطبع والنشر.
- شلي، سعد إسماعيل، دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٣.
- الشنتريني، ابن بسام، الذخيرة، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧،
- ابن شهيد، ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمعه وحققه: يعقوب زكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
- الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠ م

- الصفدي: صلاح الدين خليل بن أبيك، توشيح التوشيح، تحقيق: ألبير حبيب مطلق، دار الثقافة، بيروت.
- الضبي، أحمد بن يحيى، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م
- ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط ٦.
- الطباع، عمر فاروق: مواقف في الأدب الأموي، دار القلم، بيروت، ط ١، ١٩٩١م
- عابدين، سامي، الاتجاهات الغنائية في قصر المأمون، دار ميراز، بيروت، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣.
- ابن عباد، المعتمد، ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية. جمعه وحققه: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، وزارة المعارف العمومية، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩٥١
- عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت، ط ٧، ١٩٩٨.
- ابن عبد ربه، ديوان ابن عبد ربه الأندلسي مع دراسة لحياته وشعره، تح: د. محمد ألتونجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٣.
- عناني، محمد زكريا، الموشحات الأندلسية، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٣١، شعبان ١٩٩٨ م.
- فاديه، جين كلاود، الغزل عند العرب، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٥.
- ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، المعروف بابن الفرضي تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس. دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٠.
- فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ١٩٨١م، ط: ٤
- ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ٢٠١٠.
- فيصل، شكري: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤.
- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد شاکر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٢.
- القضاعي، ابن الأبار، الحلة السيرة، تح: د. حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط ٢ ١٩٨٥.
- القضاعي، ابن الأبار، التكملة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥.
- القيرواني، ابن رشيقي: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٢، ١٩٥٥، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
- القفطي، المحمدون من الشعراء، محمد عبد الستار خان إيم، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الطبعة الأولى، ١٩٤٧.
- الكتاني، أبو عبد الله محمد، كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق: د. إحسان عباس دار الشروق، بيروت، ط ٣، ١٩٨٦ م.
- الكتبي: فوات الوفيات، جمعها وحققها محمد حبي، الرباط، ١٩٧٦م
- كثير عزة، ديوان كثير عزة، دار صادر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥ م

- ابن اللبّانة، ديوان ابن اللبّانة الداني، تحقيق: محمّد مجيد السعيد، دار الراية، عمّان، الطبعة الثانية.
- لبيب، الطاهر: سوسيولوجيا الغزل العربي - الشعر العذري نموذجاً، ترجمة: مصطفى المنساوي، دار الطليعة، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٧٨.
- مؤنس، حسين، فجر الأندلس، الشركة العربية للطباعة والنشر - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٩.
- مبارك، زكي، العشاق الثلاثة: طبعة المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
- المتنبي، أبو الطيب، ديوان المتنبي، دار المعرفة، بيروت.
- مجنون ليلي، الديوان، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مكتبة مصر، القاهرة.
- محمد، حسن جبار: الملامح الرمزية في الغزل العربي إلى نهاية العصر الأموي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٢.
- محمود، نافع، اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثاني الهجري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠.
- المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، القاهرة، ١٩٦٣.
- مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، سنة ١٩٦١م / ١٣٨١هـ.
- المقرئ، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب .، المحقق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت - لبنان.
- ابن منظور، لسان العرب، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر.
- نجم، خريستو، جميل بثينة والحب العذري، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٢.
- النوش، حسين، التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩٢.
- هدارة، محمد مصطفى: اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، دار المعارف بمصر.
- هلال، محمد غنيمي، الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، دار النهضة، مصر، الطبعة الثانية.
- هلال، محمد غنيمي: النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، ١٩٨٧م.
- هونكه، زيفريد، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق ببيضون وكمال دسوقي، راجعه: مارون الخوري، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، ط ٢، ١٩٦٩.
- هيكل، أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، ط ١٣.
- الياسين، إبراهيم منصور، استيحاء التراث في الشعر الأندلسي، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط ١، ٢٠٠٦.
- اليوسف، يوسف، الغزل العذري، دراسة في الحب المقموع، نشر دار الحقائق الجزائر الطبعة الثانية ١٩٨٢ م.

المجلات والمقالات والأبحاث على الشبكة العنكبوتية

- مجلة فصول: مقال (الغزل العذري واضطراب الواقع - د. علي البطل)، المجلد الرابع، العدد الثاني، سنة ١٩٨٤ م
- نظرية الحب عند الشعراء التروبادور، مقال على الشبكة العنكبوتية للباحث الدكتور عبد الواحد لؤلؤة .

